

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة من قضية الصفات وضوابطها

د . محمد عبد الله عفيفي
الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك سعود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ،
الذي أنار سبل الهدى ، وكشف مناهج المعرفة ، وأبان طرائق الرشد ،
والنضج إلى أن يرث الله الأرض ، ومن عليها ، فكان خير سراج ، وأعظم
هاد ومرشد ... وبعد .

قضية الصفات وأهميتها :

تعد قضية الصفات ومآثار حوها ، من أبرز القضايا التي تتعلق بعقيدة
التوحيد في الفكر الإسلامي . وبالرغم من أنها كانت مثار جدل محتم بين
مختلف المدارس الفكرية ، والثقافية في الحضارة الإسلامية ، وبالرغم من أن
أهل السنة قد تصدّوا عن وعي وبصيرة لأولئك الذين حاولوا نفي صفات الله
سبحانه بحجة الالتزام بفكرة « التوحيد » ، أو للذين حاولوا نفي بعضها ،
وإثبات بعضها الآخر متعللين بالحجة السالفة نفسها ، أقول ، بالرغم من
هذا ، فإن القضية لاتزال مطروحة للنقاش ، طالما رأينا من يحاول إثارتها من
جديد ، ومن يصر إصراراً أكيدا على تأويل تلك الصفات التي يوصف بها

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة د. محمد عبد الله عفيفي

الله سبحانه ، والتي تدل على القدرة المطلقة للخالق سبحانه في الأفعال ، وفي التدبير .

وفي هذا الصدد ، فقد رأينا من يطلع علينا بين حين وآخر ليشيد بموقف « المتفلسفة » في البيئة الإسلامية ، حيث كان منهم من نفى الصفات نفيا تاما ، « كالفارابي » ومدرسته . ومنهم من قبل بعضها ، وأول بعضها الآخر كابن رشد وغيره من الفلاسفة الإلهيين ومن تابعه . ووجدنا أيضا من يشيد بمواقف بعض المتكلمين الذين لجأ جم غفير منهم إلى قبول بعض الصفات ، وتأويل بعضها الآخر ، بل رأينا من ينادي بإحياء آراء ، وتصورات بعض المدارس الكلامية ، ويرى أنها تمثل المخرج الأوحى من الأزمة الثقافية الخانقة التي يعاني منها الفكر الإسلامي ، أو العربي المعاصر ، كما يحلو لبعضهم أن يسميه ..

وحتى لا تتعقد بنا المفاهيم ، أو تتشعب الدروب ، فإن هذه الدراسة سوف تعنى بوضع قاعدة عامة تراعي الأسس المنهجية لموقف أهل السنة من هذه القضية ، مع بيان الضوابط العامة لتلك الأسس ، الأمر الذي نراه قاضيا على كل خلاف ينشب حولها ، كما يقطع الطريق - في نظرنا - على كل منكر للصفات ، أو مغرق في تأويلها .

ولعل من نافلة القول ، أن نذكر ، أن أهل السنة قد عرضوا لهذه القضية بالبيان المنهجي تحت عنوان « توحيد الأسماء والصفات » ، وهذا هو الجانب الذي سوف نبدأ به ، لنصل في النهاية إلى تفهّم المنهجية التي اتبعها أهل السنة في تناولهم لهذه القضية ، والتي تستحق من كل منصف في البحث ، ومتحرر للحقيقة المجردة ، أن يشيد بها ، ويتفهم عن وعي أبعادها .

• توحيد الأسماء والصفات :

- معناه .
- حقيقة موقف أهل السنة من هذه القضية .

• معناه :

ومعنى قولنا : توحيد الأسماء والصفات : إثبات الصفات ، والأسماء التي وردت في حق الله سبحانه وتعالى ، وفق النصوص الثابتة في الكتاب والسنة . وكذلك فهم هذه الصفات ، والأسماء حسبما تدل عليه ، دون بحث في تكييف أو تحديد حقيقتها ، وكذلك دون نفى لأيّة صفة وردت في حق الخالق سبحانه ، ودون تأويلها إذا كانت - من حيث التعبير اللغوي - متشابهة مع بعض صفات المخلوقين ، والأمر كذلك فيما يتعلق بالأسماء التي وردت متشابهة .

• حقيقة موقف أهل السنة من هذه القضية :

لقد قلنا : إن قضية « الصفات الإلهية » كانت ذات تأثير كبير في مجال الدراسات الإسلامية ، كما كانت محور جدل مستفيض لدى كثير من الأشخاص ، والجماعات ، والفرق في البيئة الإسلامية ، وكان النقاش والحوار يدور حول إثبات الصفات لله سبحانه وتعالى ، أو نفى عنها ، أو إثبات بعضها ونفى بعضها الآخر .

ومصدر هذا الجدل الحاد ، والحوار الساخن فيما بينها ، أن الله سبحانه وتعالى - كما نعلم - قد وصف نفسه بصفات ، وسمى نفسه بأسماء مشابهة في ظاهر اللفظ لما يوصف به بعض خلقه ويسمى به ، مثل القوة ، والسمع ، والبصر ، والإرادة ، وأنه ذو يدين ، وأن له عينا كما قال :

﴿ وَلِصْنَعِ عَلَى عَيْنَيَّ ﴾^(١)

وقال :

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾^(٢) ،

(١) سورة طه ، آية ٣٩ .

(٢) سورة القمر آية ١٤ .

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة د. محمد عبد الله عفيفي

وأنه استوى على العرش ، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا ، وغير ذلك من الصفات والأسماء الموهمة للتشبيه بين الخالق ، والمخلوق ، مع أنها في حقيقة الأمر ليست كذلك .

أما أهل السنة والجماعة ، وهم الصحابة والتابعون ، وتابعوهم ، وجم غفير من أساطين المحدثين ، والفقهاء ، والعلماء المسلمين ، فقد أثبتوا هذه الصفات وتلك الأسماء لله سبحانه وتعالى ، كما وصف بها نفسه ، وكما وصفه بها رسله ، دون محاولة منهم لبيان كيفيتها ، أو شرح طبيعتها ، أو كما يقول ابن تيمية : « فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات ، مع نفي مماثلة المخلوقات : إثباتاً بلا تشبيه ، وتنزيهاً بلا تعطيل . كما قال تعالى :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١) .

ففي قوله :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

رد للتشبيه والتمثيل . وقوله :

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

رد للإلحاد والتعطيل (٢)

ومعنى هذا : أن الصحابة ، ومن تابعهم ، وتابع منهم في فهم الصفات الإلهية ، ودلالاتها ، لم يدر بخلداهم لا من قريب ، ولا من بعيد أي تفكير حول نفي هذه الصفات والأسماء الإلهية . ومن ثم فقد فهموا قوله تعالى :

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (٣)

على حقيقته دون تحريف له ، أو تمثيل ، أو تكيف .

(١) سورة الشورى آية ١١ .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، ج ٣ / ص ٤ .

(٣) سورة الفتح آية ١٠ .

ودون نفي له ، أو تأويل ، وقد وقف الصحابة ، ومن تبعهم هذا الموقف ، لأنهم أدركوا أن تكييف الصفات ، أو الأسماء ، ومحاولة تحديد حقيقتها ، إنما يعني الوقوع في محذور لا يمكن أن يقبل ، أو يتجاوز عنه ، وهو الاعتراف الضمني بمشابهة الله للمخلوقات التي يجري عليها كلها قوانين التكيف والتحديد ، ومن ثم فلم يتجهوا إلى التكيف ، أو التحديد في هذا الجانب ، فأثبتوا الصفات والأسماء الإلهية دون تكييف .

ومن ناحية أخرى ، فإنهم أدركوا - كذلك - أن نفي التشبيه كلية بين الخالق والمخلوق ، لا يتطلب نفي هذه الصفات أو الأسماء عن الله سبحانه ، أو تأويل معناها بما يتفق مع فكرة تنزيه الله سبحانه عن مشابهة المخلوقين ، ذلك أن النفي أو التأويل إنما يعني تعطيل الباري سبحانه مما وصف به نفسه ، ومما سمي به نفسه من صفات ، وأسماء ، ومما جاء - كذلك - على السنة رسله إلى العالمين وهذا هو باختصار موقف أهل السنة والجماعة أيضا ، من قضية الصفات ، وهو الموقف الذي تابعوا فيه منهج الصحابة ، رضي الله عنهم . وبعد هذا الإيضاح المبدئي لموقف أهل السنة من هذه القضية فإننا قد نتساءل عن أسس منهجهم ، وعن ضوابطه ، حتى نتمكن من فهم أعمق لدوافع الموقف الذي وقفوه .

• أسس موقف أهل السنة من قضية الصفات ، وضوابطه :

إننا إذا حاولنا الوقوف على بعض المبررات التي ارتكز عليها أهل السنة في معالجتهم لهذه القضية فسوف نجد أن الفهم الذي فهموه منها ، والذي أشرنا إليه كان في الواقع - مرتكزاً على قاعدتين أو على حقيقتين واضحتين ، وضوح الشمس في رابعة النهار ، الأولى : أن الله تعالى صفات ، وأسماء ، قد أخبرنا بها القرآن الكريم ، وأخبرتنا بها - أيضا - السنة النبوية الصحيحة الموثقة . وقد قال تعالى :

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(١)

(١) سورة الاعراف آية ١٨٠ .

وقال سبحانه :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (١)

ولهذا فلا مفر من الالتزام بما ورد في الكتاب والسنة ، على أساس أنها حقائق موضوعية لا يجسر أحد على نكرانها وذلك لثباتها ، ولأنها موجودة ، وقائمة بالفعل . ولأن الرسل جميعا - عليهم السلام - قد كلفوا بحمل أمانة تبليغها إلى العالمين ، ومن ثم فإنها تعد جزءاً بالغ الأهمية من الرسالة التي قاموا بإبلاغها .

وفي هذا الصدد يقول ابن قيم الجوزية : (والعلم بمجيبى الرسول بذلك - يقصد الصفات والأسماء التي وصف الله بها نفسه ، ووصفه بها رسوله - وإخباره عن ربه ، إن لم يكن فوق العلم بوجوب الصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، وتحريم الظلم ، والفواحش ، والكذب ، فليس يقصر عنه . فالعلم الضروري حاصل بأن الرسول أخبر عن الله بذلك ، وفرض على الأمة تصديقه فيه ، فرضاً لا يتم أصل الإيمان إلا به » (٢) . ومعنى هذا : أن ابن القيم يقرر أن إثبات الصفات للخالق ، قضية مفروغ منها ، وهي قائمة على أساس علمي ضروري ، لا يحتمل الشك فيه ، أو الجدل حوله ، أو حتى قبول بعضه ، وترك بعضه الآخر . أما ذلك الأساس اليقيني ، فقد بين ابن القيم فيما سبق أنه مبني على الحقائق أو القواعد الآتية :

أولاً : إننا نعلم علم اليقين أن الرسول - ﷺ - قد جاء مخبراً عن هذه الصفات الإلهية تماماً مثل علمنا اليقيني بما جاء به من أحكام ، وأوصاف تتعلق بالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، هذا إن لم يزد عليها .

(١) سورة الحشر آية ٧ .

(٢) ابن قيم الجوزية ، إعلام الموقعين ج ٢/ ص ٢٩٤ مصر . مكتبة ومطبعة الحاج عبد السلام ابن شقرون سنة ١٣٨٨هـ ، ١٩٦٨م .

ثانياً : أن الله سبحانه ، قد فرض على الأمة تصديق الرسول - ﷺ - فيما جاء به ، بل أمر باتباعه ، وجعله لنا الأسوة الحسنة ، لمن كان يرجو الله ، واليوم الآخر .

ثالثاً : أن الله سبحانه وتعالى قد جعل اتباع الرسول من أصول الإيمان التي لا يعد الإيمان كاملاً ، أو تاماً إلا بها . كما قال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١) .

وإذا كان الأمر كذلك فلا مناص من التصديق ، بما ورد عن الرسول ﷺ من أخبار موثقة ، تعلمنا بما وصف الله - سبحانه - به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، وإلا لكنا واقعين في دائرة البعد عن الإيمان .

وثمة جانب آخر ينبغي أن نضعه نصب أعيننا ، وهو : أن هذه النصوص التي جاءت بها هذه الصفات ، لا تحتل تأويلاً ، ومن ثم فهي محكمة غاية الأحكام ومبيّنة - كما يقول ابن القيم - : (بأقصى غاية البيان أن الله موصوف بصفات الكمال ، من العلم والقدرة ، والإرادة ، والحياة ، والكلام ، والسمع ، والبصر ، والوجه ، واليدين ، والغضب ، والرضا ، والفرح ، والضحك ، والرحمة ، والحكمة ، وبالأفعال : كالجبيء ، والإتيان ، والنزول إلى السماء الدنيا ، ونحو ذلك) (٢)

القاعدة الثانية :

أن الله سبحانه وتعالى كما أخبرنا (ليس كمثله شيء) وهذا ينفي أي شكل ، أو أية صورة من صور المشابهة بينه وبين خلقه ، لا في الذات ، ولا في الصفات . لأنه سبحانه لا يجري عليه ما يجري على البشر ، ولا يتعلق به ما يتعلق بعالم الخلق ، لأنه سبحانه ، فوق العالم ولا تدركه العقول ،

(١) سورة النساء آية ٦٥ .

(٢) إعلام الموقعين ج ٢/ ص ٢٩٤ .

والأفكار ، والتصورات ، والمقاييس البشرية ، والكونية ، لأنه خالقها ، ومبدعها .

ومن ثم فقد كان منهج الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن تبعهم هو فهم النصوص التي قد يظن منها التشابه ، في ضوء النصوص المحكمة ، ولهذا فلا يوجد لديهم ما يدعيه بعضهم من تناقض بين النصوص المحكمة ، والمتشابهة . أو كما يقول ابن القيم :

(وأما طريقة الصحابة ، والتابعين ، وأئمة الحديث ، كالشافعي ، والإمام أحمد ، ومالك ، وأبي حنيفة ، وأبي يوسف ، والبخاري ، وإسحق فعكس هذا الطريق - يقصد طريق أولئك الذين يعارضون المحكم بالمتشابه ويردون المحكم بالمتشابه ، أو يستخرجون من المحكم أوصافاً متشابهة ليردوا بها المحكم وهي أنهم يردون المتشابه إلى المحكم ، يأخذون من المحكم ما يفسر لهم المتشابه ويبينه لهم ، فتتفق دلالاته ، مع دلالة المحكم ، وتوافق النصوص بعضها بعضاً ، ويصدق بعضها بعضاً ، فإنها كلها من عند الله ، وما كان من عند الله ، فلا اختلاف فيه ، ولاتناقض ، وإنما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره)^(١) .

ويتفرع على هاتين القاعدتين ما يأتي : -

١ - أن البحث عن تجريد الصفات الإلهية ، أو فهم كفياتها ، ليس عملاً مفيداً ، أو مجدياً ، لأن هذا الفهم ، أو بعبارة أخرى هذا المسلك يعد غير داخل في نطاق القدرة البشرية ، نظراً لما أشرنا إليه من أن ثمة حدوداً قاطعة فاصلة بين الله ، وبين البشر ، لأن الله ليس كمثل شيء .

٢ - وكذلك فإن البحث عن مخرج لما ورد من ألفاظ ، وعبارات موهمة للتشبيه ، عن طريق التأويل ، يعد بحثاً لا مبرر له إذن ، وليس ثمة أي داع يدعو إليه ، طالما أننا ، وثقنا بما جاء في هذه النصوص ، وآمنا به ،

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .

وصدقناه ، وطالما كان المخبر به هو الله الخالق ، وسواء أكان هذا الإخبار عن طريق كلام الله المباشر ، الذي تنزل وحيا على الأنبياء ، أم كان إلهاما ، وتعلّماً بطريقة ما ، كما نراه في الأحاديث الصحيحة الموثقة التي جاءت على لسان النبي ﷺ ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، كما جاء في سنن الدارمي أن السنة كان ينزل بها جبريل على النبي ﷺ ، حيث قال : (أخبرنا محمد ابن كثير عن الأوزاعي ، عن حسان قال : كان جبريل ينزل على النبي ﷺ ، بالسنة كما كان ينزل عليه بالقرآن) (١) .

التأويل لا جدوى منه :

– وما يزيد هذه الفكرة وضوحاً ، أن تَلَقَّي مثل هذه الصفات والإخبار بها عن طريق موثق ، يجعل من العبث البحث عن مخرج لفهم ماتشابه منها . لأننا هنا نسأل أنفسنا فنقول : لماذا التأويل ؟

– فهل نحن مطالبون بأن نصل إلى حقيقة معناها ؟ (٢)

– وهل تحقيق هذا المطلب ، أو الوصول إلى هذه الغاية يعد أمراً ممكنًا ؟

– وهل ما يوجد في أرجاء الكون المادي ، وما يمكن أن يتخيّل فيه ، هو ما يوجد في الملأ الأعلى ، أو فيما يتصل بالذات العليّة ، إذا علمنا علم اليقين أن الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ؟ ..

ولعل الإجابة على هذه الأسئلة ، تبدو لنا واضحة وضوحاً بيّناً ، ذلك أننا لسنا مطالبين بأن نكيّف هذه الصفات المتشابهة ، وغير المتشابهة .

(١) سنن الدارمي ، الجزء الأول – نشر ، دار احياء السنة النبوية ، ص ١٤٥/ (باب : السنة قاضية على الكتاب) .

(٢) لا يفهم من هذا أن نصوص الصفات من المتشابه وأنه لا يمكن الوصول إلى حقيقة معناها وأنها تفوض ويتوقف عن تفسيرها فقد شرحها السلف وبينوا ما فيها واستدلوا بها على إثبات الصفات وإنما فوضوا الكيفية والكنه فقالوا أمروها كما جاءت بلا كيف .

ولسنا قادرين أبداً - مهما أوتينا من قوة ذهنية ، أو عقلية ، أو خيالية فذة - على أن نصل إلى علم حقيقة هذه الصفات . ولعلنا نفهم هذه الحقيقة ، بل نعلمها علم اليقين ، من قوله تعالى :

﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (١) .

وواضح أنه ليس ثمة سلطان يمكن أيّاً من الجن والإنس على أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض (٢) . وهذا يعني عجز كل من الإنس والجن ،

(١) سورة الرحمن الآية ٣٣ .

(٢) علينا أن ننتبه إلى الدلالة البليغة لقوله تعالى :

﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا﴾

مما يدل على استحالة النفاذ فكراً ، وعقلياً ، وجسماً لأي من الإنس والجن . أما الإنس فظاهر ، وأما الجن فقد أشار الله تعالى في القرآن الكريم إلى أنهم غير قادرين على هذا النفاذ ، وآيات القرآن كثيرة ، وهي تدل على أن الله سبحانه ، قد جعل من الكواكب السيارة حرساً شديداً ، وشهباً ملتهبة ، تنقض على الشياطين الذين يحاولون سماع كلمات التدبير الإلهي ، تلقى على الملائكة ، فتحول بينهم ، وبين الوصول إلى مآربهم ، حتى ولو كانوا من مرءة الجن .

﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾

« الحجر : ١٦ - ١٨ » . ويقول سبحانه :

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوما للشياطين ، وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾

« الملك : ٥ » ويقول سبحانه خيراً عن الجن ، وكيف أنهم قد اعترفوا بهذه الحقيقة ، وأعني حقيقة عجزهم عن تحطّي حدود أو آفاق السموات ، كما أخبر الله سبحانه بذلك :

﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾

الجن : « ٨ - ٩ » ، وقال تعالى مؤكداً تلك الحقيقة السالفة :

﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ، ولن نعجزه هرباً﴾

« الجن : ١٢ » . بل يصرح الله في القرآن في وضوح حاسم أن الملائكة منطقة محرمة على الجن ، لا يستطيعون اجتيازها ، ولا يقدرون على الاطلاع على ما يحدث فيها من تدبير الذات العلية . ويقول تعالى أيضاً :

عن تخطي آفاق السموات والأرض ، حقيقة ، وتخيلاً^(١) ، ومن أجل هذا ، فإن من طبيعة العقل البشري أن يقف عاجزاً تماماً عن تبين حقائق ما في الملاء الأعلى من المخلوقات التي خلقها الله في السموات ، كما أن علمه بها يتوقف على ما يتلقاه من حقائق العلم الإلهي الذي يليق به سبحانه على من يصطفيه من عباده ليكون رسوله إلى من أمر بإبلاغهم رسالة ربهم من الجن ، والإنس .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما هي الحاجة الحقيقية ، أو الضرورية إلى الجري وراء تأويل ماورد من النصوص ، وفيه تشابه لفظي في التعبير عن صفات الخالق ، وصفات بعض المخلوقات ، أو في التعبير عن أسماء الخالق - سبحانه - والتعبير عن أسماء بعض المخلوقين ؟!

وهل هناك مجال للوقوع في تصور التشبيه بين الخالق سبحانه - وبين المخلوق ؟!

﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظنا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملاء الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾

الصفات : « ٦ - ١٠ » . قال ابن كثير (وحفظناها - السماء حفظاً من كل شيطان مارد . يعني المتمرد العاتي أراد أن يسترق السمع ، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ، ولهذا قال (لا يسمعون إلى الملاء الأعلى) أي لئلا يصلوا إلى الملاء الأعلى ، وهي السموات ، ومن فيها من الملائكة ، اذا تكلموا بما يوحى الله ، مما يقوله من شرعه ، وقدره . ولهذا قال : (ويقذفون من كل جانب) أي يرمون من كل جهة يقصدون السماء منها (دحوراً) أي رجماً يدحرون به ، ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ، (ولهم عذاب واصب) أي : في الدار الآخرة لهم عذاب موجه مستمر) انظر تفسير ابن كثير مج / ٧ ط . الشعب ، ص / ٤ . انظر : المصدر نفسه مج / ٤ ص / ٤٤٦ ، مج / ٦ ، ص ٥٠٣ ، مج / ٨ ص / ٢٦٧ .

(١) والقول الصحيح في الآية أنها خطاب للثقلين يوم القيامة عندما يجمع الله الأولين والآخرين في موقف واحد وتحقق بهم الملائكة من كل جانب فيقال لهم جميعاً (يامعشر الجن والإنس) الآية كما تدل على ذلك الآيات بعدها قال ابن كثير رحمه الله أي لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره .. وهذا في مقام الحشر ، الملائكة محدقة بالخالق .

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة د. محمد عبد الله عفيفي

إن تصور وقوع فكرة « التشابه » بين الخالق والمخلوق - بسبب الاستعمال اللغوي - يبدو أمراً بعيد الحدوث لدى أولئك الذين ينظرون إلى هذه القضية من تلك الزاوية التي نظرنا منها بل أنه يبدو أمراً غير منطقي تماماً . ذلك أننا هنا نتساءل قائلين :

- أين التشبيه - إذن - إذا كانت ذات الباري سبحانه ليست مثل ذوات البشر ؟!

- وأين التشبيه إذا كانت صفات الله ، وأفعاله - سبحانه - وضوابطها ، ومفاهيمها ، ومعاييرها .. الخ مغايرة تماماً لما يصدر عن المخلوقين ؟!

- وأين التشبيه إذا كانت قدرة الله العظيم ، ومجالاتها ، وإمكاناتها ، وسلطانها لا حدود لها ، ولا قيود عليها ، على النقيض مما هو حاصل وواقع لدى البشر ؟! وفي هذا الصدد فإنه يكفي أن نشير - على سبيل المثال - إلى ما تدل عليه بعض نصوص العلم الإلهي ، وذلك في مجال تصوير بعض جوانب قدرة الله العظيم سبحانه - قال تعالى :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكُمَّتْ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (١)

وقال سبحانه .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَانَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢)

قال ابن كثير في تفسير آية الكهف (١٠٩) : (يقول : لو كان البحر مداداً ، والشجر كله أقلام ، لانكسرت الأقلام ، وفني ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا ينفيا شيئاً ، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ،

(١) سورة الكهف آية ١٠٩ .

(٢) سورة لقمان آية ٢٧ .

ولا يثني عليه كما ينبغي ، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه . إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول ^(١) ..

فهل مع تأمل هذا الإبلاغ العلمي يمكننا أن نتصور وقوع عاقل في توهم التشابه بين الخالق - سبحانه - وبين المخلوق ، بسبب الاستعمال اللغوي ؟!

ومما يزيد هذه الفكرة - في تصورنا - وضوحاً ، أن اللغة التي يفهمنا بها خالقنا ما يتصف به - سبحانه - من صفات ، وما يتعلق به - سبحانه - من الأسماء والأفعال لابد أن تكون لغة بشرية ، من شأنها أن تقرب إلينا الدلالات ، وتفتح أمامنا آفاق التصورات ، دون أن تحدد أو تكيف حقائق ما تدل عليه ، لأن تحديد أو تكيف هذه الحقائق فضلاً عن استحالة كما أشرنا ، فإنه لا يتعدى كونه وهما من الأوهام ، وخيالا من الخيالات التي لاتليق خلقيا بالإله الخالق جل وعلا .

ومن ناحية أخرى ، فإننا نرى أن إعلام الناس بما يتصف به سبحانه ، وما يجوز أن يسمى به ، لا ينبغي أن يترك إلى ما تجود به قرائح المفكرين ، ولا إلى ما تميزه عقول ثقافة الباحثين ، ذلك أن هؤلاء ، وهؤلاء قد يقعون في تصورات ، وخيالات تميزها عقولهم ، وتستحسنها أذواقهم ، وتتقبلها معاييرهم ، بينما هي في الواقع مناقضة لحقيقة ما يتعلق به سبحانه ، بل لاتليق بذاته سبحانه وتعالى ، وحينئذ يكون قبولها ، والتلفظ بها عن إيمان ، وتصديق بها يعد كفراً ، ومخالفة صريحة لأهم ركائز أو قواعد العقيدة الدينية الصحيحة ^(٢) .

(١) ابن كثير / مصر . ط / الشعب ، مج / ٥ ، ص / ٢٠٠ . وانظر في تفسير الآية الثانية ، المصدر نفسه ، مج / ٦ ص ٣٥١ .

(٢) للتدليل على هذه ، الفكرة ، - على سبيل المثال - اقرأ ما كتبه فيلسوف مشهود له بالعبرية ، وهو أرسطو ، عن تصويره للإله . وكيف أنه وقع في كثير من المحظورات التي تخالف العقيدة الدينية الصحيحة . انظر ، يوسف كرم تاريخ الفلسفة اليونانية . القاهرة ، لجنة التأليف

والترجمة والنشر ، ط ٣/ ، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م ، ص ١٧٧ - ١٨٢ (الإلهيات) . وما كتبه ثقات الباحثين عن أرسطو وعن غيره من الفلاسفة المتمكنين ، كيف ضلوا ضلالاً بعيداً في كثير مما كتبوه ، أو اعتقدوه فيما يتصل « بالله » سبحانه وتعالى ، معتمدين في ذلك على ما يميزه العقل البشري ، وعلى ما يسفر عنه الفكر الإنساني إذا لم يستعن بحقائق العلم الإلهي الذي جاء به الأنبياء عن الله سبحانه . وأنظر كذلك ، جيمس كولينز ، الله في الفلسفة الحديثة . ترجمة فؤاد كامل . نشر مكتبة غريب ، القاهرة . ١٩٧٣م ، ص ٤٨٦ وما بعدها ، وفي كثير من مواضعه . ويكفي في هذا الصدد أن نعلم أن الانطباع العام الذي تخرج به من قراءة تناول هؤلاء الفلاسفة - حتى المؤمنين منهم - لفكرة الألوهية ، هو أن حقيقة الإيمان لديهم تبدو متوقفة عند حدود البرهنة العقلية فقط ، ومن ثم فلا تشعر إزاء تناولهم لفكرة الألوهية بذلك اليقين الصادق الذي يغشى قلوب المؤمنين عادة ، وكذلك تشعر أن اللغة التي تستخدم في تناولهم الفلسفي لهذه الفكرة (فكرة الألوهية) تفوح منها رائحة التعالي الفلسفي ، والثقة المفرطة لدى أصحابها في تميز منهجهم في تناول هذه القضية ، بحيث يبدو الأمر وكأنهم أصحاب فضل في إثبات فكرة الألوهية . ومن الأمثلة التي تؤكد ما ذهبنا إليه ، هذه الفقرة التي يتحدث فيها « كولينز » عن رأي ، أو منهج (جون لوك : ١٦٣٢ - ١٧٠٤م) في الألوهية ، حيث يقول : (والواقع أن « لوك » ليس على استعداد للتسليم مع « سيكون » ، « وهوبز » - بأي حال من الأحوال - بأن الفلسفة التي تلح على التجربة الحسية ، لا تستطيع أن تؤكد شيئاً عن الإله ، ولكنه يذهب إلى أن التجريبية تستطيع أن تستغنى عن الوظيفة الاستنباطية التي يعد بها العقليون إلى الإله . وإلغاء هذه الوظيفة لا يترتب عليه استبعاد الإله من الفلسفة ، استبعاداً تاماً ، وإنما هو طريقة جديدة لتصور مركزه في الفلسفة . وكل ما يريده (لوك) هو أن يجرد نظرية الإله من تلك الوظيفة دون استبعاد النظرية نفسها من نطاق الفلسفة ، استبعاداً تاماً . وهو في الواقع موقف دقيق يتعذر التمسك به . ومن الناحية التاريخية ، يختل التوازن عادة في صالح طرف أو آخر . فسرعان ما أدت بعض جوانب النظرية التجريبية في المعرفة إلى التقليل من دلالة الإله الفلسفية إلى أبعد حد) ، الله في الفلسفة الحديثة ، ص ١٥٢/ وانظر ما بعدها . والأمثلة على هذا كثيرة جداً ، تجدها مبثوثة في هذا الكتاب ، وفي غيره من كتب الفلاسفة الغربيين ، وفي كتب من تأثر بهم ، ومنهجهم في التفكير والتحليل . فأنت إذا قرأت الفقرة السابقة ، تشعر أن الحديث عن فكرة « الألوهية » ينم عن صلف فكري ، كما يدل على إيمان « أصم » بحيث تشعر وكأن إثبات الألوهية أو الاعتراف بها يعد منحه من هؤلاء الفلاسفة ، يثبتها من يشاء ، وينفيها من يريد ، وتجد أن هذا يقيددها ، وذاك يبسطها ، وثالث يعدل فيها .. وهكذا تعالى ربنا وتقديس عن ذلك علواً كبيراً . وانظر ، د . محمود قاسم ، ابن رشد . القاهرة . مكتبة الانجلو ، بدون تاريخ ، ص ٩٧ ، ٩٨ في بيانه كيف أن أرسطو قد وقع في خطأ جسيم مخالف لما تقتضيه العقيدة الصحيحة عندما تحدث عن الألوهية . وانظر كذلك ، البحث الذي أعده د . إبراهيم بيومي مذكور ضمن كتاب ، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف

• عرض لآراء بعض علماء المسلمين في فهم صفات الله :

١ - ابن الوزير (٧٧٥ - ٨٤٠ هـ) :

ولذلك فقد كانت تلك الحقيقة التي أشرنا إليها ، واضحة لدى علماء المسلمين الملتزمين بمنهج القرآن والسنة ، يقول « ابن الوزير اليمني » : (٧٧٥ - ٨٤٠ هـ)

(وأيضاً فقد ثبت أن الرحمن مختص بالله تعالى وحده ، ويحرم إطلاقه على غيره ، ولو كانت الرحمة له مجازاً ، ولغيره حقيقة ، كان العكس أوجب وأولى . وما المانع للمسلم من اثباتها صفة حمد ومدح ، وثناء كما علمنا ربنا مع نفي صفات النقص المتعلقة برحمة المخلوقين عنه تعالى ، كما أثبتنا له اسم « الحي ، العليم ، الخبير ، المريد » مع نفي نقائص المخلوقين في حياتهم المستمرة ، لجواز التألم بأنواع الآلام .. وكذلك ينزه سبحانه عما في عملهم الناقص بدخول الكسب والنظر في مبادئه ، والاستدلال والاضطرار في منتهاه الذي يستلزم الجسمية ، والبنية المخصوصة ، والحدوث ويعرض له التغير والنسيان ، والخطأ ، والشغل ببعض المعلومات عن بعض)^(١) والأمر كذلك فيما يتعلق بآرادته ، بل في (كل صفة يوصف بها الرب سبحانه ، ويوصف بها العبد ، وإن الرب يوصف بها على أتم الوصف مجردة عن جميع النقائص ، والعبد يوصف بها محفوظة بالنقص . وبهذا فسر أهل السنة نفي التشبيه ولم يفسروه بنفي الصفات كما صنعت الباطنية الملاحدة)^(٢) .

والنشر . مصر . سنة ١٩٧٧م ، ص ١٤٩ - ١٥١ في حديثه عن مخالفة أرسطو الصريحة لحقيقة العقيدة الدينية الصحيحة ، فيما ذهب إليه في مسائل الميتافيزيقا ، وما يصدق على « أرسطو » يصدق على كثيرين ممن هم على شاكلته .

(١) محمد بن المرتضى البهائي ، إثبات الحق على الخلق ، بيروت ، دار الكتب العلمية . ص ١/ سنة ١٣١٨هـ ، ص ١٣٥ وانظر ما بعدها .

(٢) نفسه ، ص ١٣٥ .

ومن هذا النص السابق ندرك بوضوح أن فكرة المشابهة بين صفات الله ، وصفات المخلوقين فكرة مستبعدة تماماً لدى أي انسان مميز عاقل ، فضلاً عن أن يكون من المفكرين ، أو الباحثين ، ولذلك فإن ابن « الوزير الهنّي » هنا يشير إلى أن النصوص قد تضافرت على وصف الله سبحانه بعدد من الصفات ، وعلى تسميته بعدد من الأسماء . ومثال ذلك ، أنه سبحانه قد وصف نفسه « بالرحمة » وتسمّى « بالرحمن الرحيم » في عديد من الآيات القرآنية ، وفي العديد من الأحاديث النبوية الصحيحة . أو كما يقول « ابن الوزير » :

« وعظّم الله هذا الاسم الشريف ، وبالع في تعظيمه ، حيث قال :

﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (١)

وقال حاكياً عن خيار عباده :

﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (٢)

وجاءت الصوداع القرآنية مادحة لله تعالى بأعظم صيغ المبالغات في هذه الصفة الشريفة ، الحميدة ، بأن الله عز وجل ، « أرحم الراحمين » و « خير الراحمين » وكرر هذه المبالغة في مواضع من كتابه الكريم (٣) ثم يقول :

« وكرر الله التمدح بالرحمة مراراً جمّة أكثر من خمسمائة مرة من كتابه

الكريم ، منها باسمه « الرحمن » أكثر من مائة وستين مرة . وباسمه « الرحيم » أكثر من مائتي مرة . وجمعها للتأكيد مائة وست عشرة مرة ، وأكد « الرحيم » فجمعه مراراً مع « التواب » ، ومراراً مع « الرؤوف » . والرأفة أشد الرحمة ، ومراراً مع « الغفور » وهي أكثر .. وأخبر أنه كتب على نفسه الرحمة مرتين . وأنه « لا عاصم من أمره الا من رحم » وأن من لم يرحمه يكن من الخاسرين . إلى غير ذلك من صيغ المبالغات القاضية بأن

(١) سورة الإسراء آية ١١٠ .

(٢) سورة الملك آية ٢٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص / ١٣٢ ، وانظر ص ١٣٣ .

ذلك من أحب الثناء والممدوح ، والمحامد إليه عز وجل «^(١) .

فالله جل جلاله ، يتصف « بالرحمة » ويختص باسم « الرحمن » ، ويسمى « بالرحيم » . وكذلك فاننا نصف بعض بني البشر بصفة « الرحمة » كما نقول عن انسان ماً بأنه « رحيم » فهل هذا يعني أن ثمة تشابهاً بين الخالق والمخلوق ، لأننا وصفنا الإنسان « بالرحمة » وقلنا عنه - أحياناً - إنه « رحيم » ؟! إن من الأمور البدهية أن تكون « الرحمة الالهية » مخالفة تمام المخالفة للرحمة البشرية من كل الوجوه ، ونؤكد على قولنا من كل الوجوه ، فرحمة الله ، لاتحد ، ولا تكيف ، ولا يدرك حدودها .. الخ .. على العكس من رحمة بني البشر .

وما قلناه في الرحمة ، يقال كذلك في كل الصفات ، والأسماء التي وصف الله بها - سبحانه - نفسه ، أو التي تسمى بها . وقد أقر بهذه الحقيقة كذلك بعض الفلاسفة ، كما أشار إلى ذلك ابن رشد - رغم ما في آرائه الأخرى من مآخذ - وذلك أنه في معرض اثبات الصفات ، التي أثبتها الله سبحانه ، يشير إلى قاعدة عامة في هذا الصدد ، وهي أن صفات الله ينبغي أن تكون مغايرة لما يوصف به الحوادث . ففي صفة « العلم » - مثلاً - وهي من أولى الصفات التي عرض لها ، يرى أنه (ينبغي أن ينسب اليه - سبحانه - علم أسمى من علم الإنسان ، ومن نوع آخر مخالف له كل المخالفة . فعلم الانسان ليس إلا علماً نسبياً ، لأنه يكتسب على مراحل . فيبدأ بالاحساسات ، ثم ينتقل إلى الادراكات الحسية ، ومنها إلى التصور والخيال ، ومن الصور الخيالية الجزئية تنتزع أو تجرد المعاني الكلية . وقد تستخدم هذه المعاني الكلية بدورها في استنباط بعض المعاني الجزئية ، غير أنها تؤدي مع ذلك إلى نتائج ناقصة أو خاطئة)^(٢) . « فابن رشد »

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٢ ، وانظر ص ١٣٣

(٢) د . محمود قاسم ، ابن رشد . القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية . بدون تاريخ ، ص ٩٦ - ٩٧ ، انظر ابن رشد الكشف عن مناهج الأدلة ضمن مجموعة فلسفة ابن رشد . بيروت دار الآفاق الجديدة ، ط/ ١ سنة ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م ص ٧٠ ، ٧١ .

(٥٢٠ - ٥٩٥ هـ) يعترف بقصور العلم الإنساني ، وبأنه نسبي ، وبأن نتائجه يلحقها النقص ، والخطأ . ويعلل أستاذنا المرحوم الدكتور « محمود قاسم » هذه الفكرة أو يوضحها فيقول : « وليست هذه القضية الأخيرة في حاجة إلى برهان ، لأننا نرى أن العلم يتقدم مع الزمن ، وأن بعض الآراء التي كان يظن أنها صادقة ، قد بدت خاطئة ، مناقضة لما يقضي به العقل الذي شب عن الطوق » (١).

٢ - إسحاق بن إبراهيم : ومن الأمثلة التي تؤيد مافهمناه من موقف السلف الواضح في إثباتهم لجميع ماورد من نصوص صحيحة ، فيها نسبة صفة إلى الله ، أو نسبه اسم إليه سبحانه ، مذكروه « حرب بن اسماعيل » حيث قال : « سمعت إسحق بن إبراهيم يقول : ليس في النزول وصف . قال : وقال إسحق : لا يجوز الخوض في أمر الله كما يجوز الخوض في أمر المخلوقين ، لقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُ عَمَّا فَعَلُوا وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (٢) .

ولايجوز أن يتوهم على الله بصفاته ، وفعاله ، بفهم مايجوز التفكير والنظر فيه من أمر المخلوقين ، وذلك أنه يمكن أن يكون الله موصوفاً بالنزول كل ليلة - إذا مضى ثلثها إلى السماء الدنيا ، كما شاء ولا يسأل ، كيف نزوله ؟ لأن الخالق يصنع ما شاء كيف شاء » (٣)

ومعنى هذا : أن دلالة أو مفهوم كلمة « النزول » التي جاءت في الحديث الصحيح لا يمكن ، ولا يجوز أن ننظر إليها من خلال حركات ، أو مدلول هذه الكلمة في العالم الإنساني ، أو من خلال التجارب البشرية .

(١) المصدر السابق .

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

(٣) ابن تيمية ، الاستقامة ج ١ تحقيق د . محمد رشاد سالم . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط ١/ . سنة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م ، ص ٨٧ . وانظر تخريج هذا الحديث في المصدر نفسه ، تعليق رقم (٢) ص ٧٢ - ٧٣ . والحديث رواه البخاري في كتاب التهجد باب الدعاء ، وفي كتاب الدعوات : باب الدعاء نصف الليل . وفي كتاب التوحيد . وفي سنن أبي داود . وفي سنن الترمذي .

فالله سبحانه - إذاً - ينزل إلى سماء الدنيا ، كل ليلة ، إذا مضى ثلثها ، هذه حقيقة ، ولكن هل ثمة حدود لسماء الدنيا ؟ وهل يستطيع علماء الفلك - بما أوتوا من علم ، وبما توفر لديهم من أجهزة متقدمة ، وفائقة الحساسية ، هل يستطيعون أن يكشفوا لنا عن حدود كل سماء من السموات السبع التي ذكرها القرآن الكريم ، خبراً علمياً كونياً صادراً عن الله الخالق ؟ وهل يمكن تحديد أو تكييف النزول الإلهي ؟ وهل قوانين هذا النزول الإلهي هي بعينها قوانين ومعايير الحركة ، أو الكيفية التي تحدث من قبل البشر أو غيرهم من الحوادث ؟ وإذا عجزنا عن التكييف ، وإذا عجزنا عجزاً تاماً - كذلك - حتى عن مطلق التخيل ، أو التصور للهيئة أو للكيفية التي يكون عليها النزول الإلهي ، فهل يكون هذا العجز الطبيعي ، ذريعة إلى إنكار ماثبت في الإخبار العلمي عن الخالق ؟ وهل يكون في إثبات هذه الصفة ، أو هذا الفعل « الإلهي شيء من التمثيل أو من التشبيه لله تعالى عن ذلك ؟! إنني أعتقد أن مقاله : « اسحق بن ابراهيم » في النص السابق كان ذا دلالة بالغة ، تكشف عن دوافع أو لنقل ركائز ، أو أسس موقف أهل السنة من قضية الصفات ، وكيف أنهم أثبتوا ماوردت به النصوص ، كما ذكرنا ؛ ذلك أنهم كانوا يعلمون علم اليقين - كما قال اسحق - : أنه (لايجوز الخوض في أمر الله ، كما يجوز الخوض في أمر المخلوقين ، ولا يجوز أن يتوهم على الله بصفاته وفعاله ، بفهم مايجوز التفكير والنظر فيه من أمر المخلوقين » .

وهذا الموقف يتطلب منا أن نتلقى بالقبول ، والرضا ، واليقين ، والمهابة ، والإجلال ، كل الأخبار العلمية ، بما يتصف به سبحانه ، من صفات ، ومايتسمى به - جل جلاله - من أسماء ، طالما أنها جاءت عن طريق المصدرين الموثقين ، وهما الكتاب ، والسنة . فليصف الله سبحانه ، نفسه بما شاء ، وليسم نفسه - سبحانه - بما شاء ، وعلينا أن نؤمن بهذا كله إيماناً صادقاً ، بل علينا أن نعلمه علم اليقين ، في حدود قدراتنا ،

وإمكانياتنا ، ولكن دون أن نقوم بما يمكن أن نسميه عملية « النقل » أو « الإسقاط » من قبلنا ، بمعنى أننا نجعل من « الله » سبحانه وتعالى عن ذلك ، كائنا ماديا ، أو بشريا ، فنفهم صفاته ، وأسماءه في ضوء المفاهيم أو الدلالات للأسماء ، أو الصفات البشرية ، وبالتالي فإننا ننفي مانفيه منها تحت ستار التنزيه .

فإذا كان الله سبحانه ، منزلها أساساً ، عن مشابهة المخلوقين ، وإذا كان قد وصف نفسه ببعض الصفات ، أو سمى نفسه ببعض الأسماء التي تتشابه من حيث « اللفظ اللغوي » مع ما يحدث من الحوادث ، فهل نسارع إلى نفي هذه الصفات ، أو الأسماء ، حتى لانقع في التشبيه ، أو حتى لانخالف مفهوم التوحيد ؟!

إننا نفهم أن التنزيه قائم فعلا - حتى مع إثبات هذه الصفات ، وتلك الأسماء ، التي يظن فيها التشابه ، ذلك أن ما ينسب إلى الله مغاير في كلفيته ، ومخالف لما ينسب إلى البشر ، لأنه أخبرنا بذلك . وكما أشرنا إليه من قبل . ومن أجل هذا كان « إسحق بن راهويه » على درجة من الحذق ، والفهم في نقاشه لبعض قواد الأمير عبد الله بن طاهر » (ت : ٢٣٠ هـ) حول هذه القضية . حيث (سئل عن حديث النزول . صحيح هو ؟ قال : نعم . فقال له بعض قواد عبد الله : أتزعم أن الله ينزل كل ليلة ؟ قال : نعم . قال كيف ينزل ؟ قال له إسحق ، أثبتته حتى أصف لك النزول . فقال له الرجل : أثبتته . قال له إسحق : قال الله تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾^(١)

» فقال الأمير عبد الله بن طاهر « يا أبا يعقوب ! هذا يوم القيامة . فقال إسحق : أعز الله الأمير ، ومن يجيء يوم القيامة ، من يمنعه اليوم ؟ »^(٢) .

(١) سورة الفجر آية ٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٧ / ٧٨ .

الخلاف حول صفات الحركة :

وما يقال عن النزول يقال عن بقية الصفات التي تدل على « الحركة » ، وعلى غيرها ، شريطة أن يكون معلوما ، وواضحاً ، وثابتاً أن فهم هذه الصفات الإلهية ينبغي أن يكون بعيداً عن التكييف المتعلق بالعالم الكوني ، وبعيداً عن أية صورة من صور التمثيل بعالم الحوادث ، فهي صفات ذات كيفية خاصة ، لا ندري عن كنهها شيئاً ، ولا نعلم عن طبيعتها - كذلك - أي شيء ، وكذلك فإنه ليس في مقدورنا ، ولا في مقدور أي كائن ، جنا كان أو إنساً ، أن يحيط - بأية صفة أو اسم منها - علماً ، أو يعلم شيئاً عن حقيقتها ، اللهم إلا من أراد الله أن يطلععه على بعض خفايا علمه المكنون ، أو أسراره العظمى ، فذلك سرّ الله في خلقه ، والله في خلقه شؤون .

يقول ابن تيمية بصدد هذه القضية ، بعد أن عرض في إيجاز مادار بين بعضهم من خلاف حول « صفات الحركة » ، فمنهم من يثبتها دون تأويل ، ومنهم من يؤولها في هذا الجانب المتعلق بالحركة خاصة - يقول ابن تيمية :

« وبكل حال ، فالمشهور عند أصحاب الإمام أحمد ، أنهم لا يتأولون الصفات التي من جنس الحركة ، كالجحيى ، والإتيان ، والنزول ، والهبوط ، والدنو ، والتدلى ، كما لا يتأولون غيرها متابعة للسلف الصالح ، وكلام السلف في هذا الباب يدل على اثبات المعنى المتنازع فيه »^(١) ولذلك فقد قال « الأوزاعي ت : ١٥٧هـ » عندما سئل عن حديث النزول : (يفعل الله ما يشاء)^(٢) . وقال « حماد بن زيد ، ت : ١٧٩هـ » : (يدنو من

(١) الاستقامة ، ج ١/ ص ٧٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٦ - ٧٧ . والجهمية : هم أتباع (جهم بن صفوان) الذي نادى بفكرة الجبر ، وأنكر أية قدرة للإنسان ، وزعم أن الإيمان يكفي فيه معرفة الله تعالى فقط . وكان جهم تلميذاً (للجعدي بن درهم) الزنديق الذي كان أول من قال بخلق القرآن ، انظر ، الفرق بين الفرق ، ص ٢١١ وما بعدها .

خلقه كيف شاء»^(١) . وقال «الفضيل بن عياض ، ت : ١٨٧هـ » :
(إذا قال لك الجهمي أنا أكفر برب يزول عن مكانه ، فقل : أنا أؤمن برب
يفعل ما يشاء)^(٢) .

صفات الحركة في الآخرة :

وبناء على ما أوضحناه من مذهب السلف ، وبناء على ما فهمناه من
الأسس والقواعد التي بنوا عليها موقفهم في هذه القضية الكبرى - أقول بناء
على ذلك ، فإنني أرى أنه ليس ثمة داع إلى وقوع خلاف حول « صفات
الحركة » التي جاءت بها النصوص الموثقة صفة لله تعالى ، طالما أن هذه
الصفات خاصة به سبحانه ، لا يشركه في تكييفها غيره ، ونحن - أيضا -
لاندري ولا نعلم عن كنهها شيئا . فإذا قال الله سبحانه :
﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَأِكَةِ ﴾^(٣) .
فإن هذا الإتيان نفهمه دون تكييف ، ودون تمثيل ، تماما كما نفهم قوله
تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفَافًا ﴾^(٤) وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ^(٤) ،

ذلك لأن كل شيء في الكون يومئذ سوف يتغير ، وكل المعايير المادية التي
نحتكم إليها سوف تتغير كذلك ، ومن ثم فإن أوضاع الآخرة ، وحوادثها ،
وما يجري فيها سوف يكون مختلفا تمام الاختلاف عما نشهده في عالم اليوم ،
من أحداث ، وما يجري فيه من ألوان الحركات ، والعلاقات ، كل العلاقات
التي تنتظم كل الأشياء . ودليل ذلك ما أخبرنا به الله في القرآن العظيم ، بما
سوف يحدث في الآخرة لكل الظواهر والأشياء المادية ، وغير المادية لابد أن
تكون تبعا لها .

(١) ، (٢) المصدر السابق ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٣) سورة البقرة آية ٢١٠ .

(٤) سورة الفجر آية ٢٢ .

ومعنى هذا : أن جميع أخبار الله المتعلقة بما سوف يحدث يوم القيامة لابد أن تفهم فهما مغايراً - في حقيقته - لما هو واقع بيننا الآن ، حتى بالنسبة للأحداث المتعلقة بالبشر ، وبالظواهر الكونية ، وبالعلاقات الإنسانية ، أي مايتعلق بكل أحداث يوم القيامة ، ومايسبقه من وقائع ، وظواهر ممهدة . ودليل ذلك ، أن الرب تعالى يخبرنا عن النبأ العظيم إخبارات علمية موثقة ، وأكيدة ، وصادقة بما سوف يحدث للأرض وللسماء ، وللكون كله . قال تعالى :

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عِزًّا الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١)

أما الأرض ، فإن الله تعالى يدلنا في القرآن ، ويخبرنا بأن مافيه من جبال سوف تتغير طبيعتها الصامدة الجامدة ، الراسية الشاحخة

﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ (٢) ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٣)

وتصير كالعهن المنفوش (٤) ، ثم إن الأرض سوف ترجف هي والجبال . وتسير سيرا (٥)

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً﴾ (٦)

(١) سورة إبراهيم آية ٤٨ .

(٢) سورة النازعات آية ٣٢ .

(٣) سورة النبأ آية ٢٠ .

(٤) ففي سورة المعارج قال تعالى

﴿وتكون الجبال كالعهن

وقال في سورة القارعة

﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش

آية ٥ .

(٥) كما في سورة الطور آية ٧ .

(٦) قال ابن كثير :

﴿يوم ترجف الأرض والجبال

أي ترتلزل

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة د. محمد عبد الله عفيفي

ويقول سبحانه :

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (١)

بل إن هذه الجبال التي نضرب بها المثل في الثبات ، والرسوخ ، والقوة الصماء ، سوف تحمل حملا ، وتذك دكا

﴿١٥﴾ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٦﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَاذَةً وَاحِدَةً ﴿١٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٨﴾ (٢)

وهكذا نجد أن الرب تعالى يطلعنا في القرآن العظيم على بعض الظواهر المادية التي سوف تحدث في يوم القيامة ، للأرض وما عليها من جبال ، وأنهار ، وأودية ، وخليجان ، وبحار .

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا

عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (٣) .

وهكذا فالأرض سوف تبدل غير الأرض ، ومفهوم هذا التبدل يعني بكل وضوح ، وتأکید ، أن كل مايجري فيها من شتى الوقائع والأحداث ، والعلاقات لن يكون له وجود آنئذ ، فالتبدل والتغير سوف يلحق بكل شيء ، ويحدث في كل شيء .

وما يحدث للأرض ، فسيكون حادثاً للسماء أيضاً وما فيها ، فالسماء سوف تنفطر ، والكواكب ستندثر ،^(٤) . والسماء سوف تمور أي تضطرب

﴿ وكانت الجبال كشيئا مهيلا ﴾

أي تصوير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء . ثم إنها تنسف نفسها فلا يبقى منها شيء إلا ذهب ، حتى تصوير الأرض قاعاً صاففا لا ترى فيها عوجاً ، أي وادياً ، ولا أمثا ، أي : رابية . ومعناه : لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع . تفسير ابن كثير ، ط الشعب ، مج ٨ / ص ٢٨٢ .

(۱) سورة الكهف آية ۴۷ .

(٢) سورة الحاقة آية ١٣ - ١٥ .

(٣) سورة طه الآيات ١٠٥ - ١٠٧ .

(٤) اقرأ سورة الأنفطار الآيات ١ - ١٠ .

وتدور ،^(١) ويحل بها ما شاء الله ، وأخبر عنه في محكم علمه ، حيث قال :
﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمِذٍ وَاهِبَةٍ ۖ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمِذٍ مُّنِينَةٍ ۖ﴾^(٢)
وحيث أخبرنا قائلنا :

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فَرِجَتْ ۖ﴾^(٣) ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۖ﴾^(٤) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۖ﴾^(٥)
﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِيمِ وَنُزُلُ الْمَلَكِ تَنْزِيلًا ۖ﴾^(٦) ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ ۖ﴾
﴿لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ۖ﴾^(٧) ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۖ﴾^(٨) ﴿يَغْشَى النَّاسَ ۖ﴾^(٩)

ومعنى هذا أيضاً : أن القوانين ، والأحكام التي نعتمد عليها في تسيير
دفة حياتنا ، وفي تنظيم وترتيب أمور معاشنا ، والتي نعتمد عليها في إصدار
أحكامنا ، وفي الكشف عن مزيد من أسرار الكون ، ودقائق نظمها ، والتي
نتخذها أساساً للحديث عن القوانين والنظريات العلمية ، ونعدها سنداً
للبحوث والتجارب في ميادين العلوم المختلفة - كل هذا سوف يزول ،
وسوف ينفرط عقد نظامه ، وتتلاشى مظاهر الوحدة والنظام فيه بمشيئة
الله ، وفعله .

ظواهر جديدة ستحدث يوم القيامة :

وبناءً على هذا التغير ، والتبدل الذي يلف كل أرجاء هذا الكون - كما
ذكرنا - فإن ظواهر جديدة تماماً سوف تحدث ، لم تكن متيسرة في عالم
الحياة الدنيا . ومن هذه الظواهر الجديدة :

(١) كما ذكر في سورة الطور الآيات ١ - ١٠ .

(٢) سورة الحاقة الآيتان ١٦ ، ١٧ .

(٣) سورة المرسلات الآية ٩ .

(٤) سورة النبا الآية ١٩ .

(٥) سورة التكويد الآية ١١ .

(٦) سورة الفرقان الآية ٢٥ .

(٧) سورة الأنبياء الآية ١٠٤ .

(٨) سورة الدخان الآيتان ١٠ ، ١١ .

﴿وَرَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(١)
 ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾^(٢)
 ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٣)

وهنا قد يقول بعضهم إن أمثال هذه المشاهد والأحداث يقع نظيره في عالم اليوم ، بيد أن هذا الاعتراض ، يمكن الرد عليه ، بأن مشاهد القيامة وأحداثها مختلفة كما قلنا كيفاً ، وحقيقة ، ومظهرها عما هو قائم بيننا اليوم في الحياة الدنيا ، ويضاف إلى هذا : أن الحديث هنا عن مشاهد يوم القيامة يمثل الظواهر والأحداث العامة التي لا استثناء فيها إلا بإرادة الله الخالق ، الحاكم سبحانه . بينما نجد في عالم اليوم مظاهر لا تحصى من انفرط عقد أحكام العدل ، والنظام ، ودليل هذا ، أن آلافاً مؤلفة من المجرمين في شتى بقاع العالم يسرحون ، ويمرحون ، بل قد يلقون من آيات التقدير ، والعرفان ، وظواهر الإكبار ، والثناء ، ما لا يجده المخلصون الحقيقيون . أما في يوم القيامة فالأمر مختلف ، والعاقل الرحيم سوف ينصب الميزان القسط ولن يقع فيها جور ولا حيف بأي حال من الأحوال ، لأن ربنا العظيم الرحيم ، قد أعلمنا ، وأخبرنا بأنه

﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٤)

وأخبرنا قائلًا

﴿وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾^(٥) ،

وقائلًا

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٦)

والآيات في هذا كثيرة ، ووفيرة .

(١) سورة إبراهيم ، الآية ١٩ .

(٢) سورة طه ، الآية ١٠٩ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية ١٠١ .

(٤) سورة غافر ، الآية ١٧ .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧ .

(٦) سورة يس ، الآية ٥٤ .

ومن مظاهر هذا التغيير ، أيضا : أن ما كان مخفيا عنا في الحياة الدنيا سوف يتكشف في الآخرة ، فالملائكة سوف يراهم الناس ، كل الناس سواء في الجنة ، أم في النار ، وآيات القرآن في هذا صريحة كل الصراحة ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾^(١)

[الفرقان : ٢٢] [الأنبياء : ١٠٣] وفي غير هذا من آيات القرآن الكريم . ونخلص مما سبق من عرض ، أن محاولة « تأويل » الآيات التي يخبرنا فيها الله سبحانه ، أنه سوف يجيء ومعه الملائكة ، أو غيرها من الآيات التي تنسب إليه سبحانه أفعالا تدل على الحركة ، يوم القيامة ، أقول إن محاولة تأويل هذه الآيات بدافع « التنزيه » ليس له ما يبرره ، لأن التنزيه قائم ، وموجود ، مع إثبات المعاني الخاصة بكل هذه الأفعال ، والصفات وهي معان خاصة به سبحانه ، لا يشاركه في حقيقتها ، أو في كيفيتها أحد غيره سبحانه ، فالله سبحانه – منزه – في كل الأحوال ، والصفات ، والأفعال عن مشابهة خلقه .

(١) يذكر ابن كثير ، أن معناها : (وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم ، أي يوم القيامة . وقيل : المراد به يوم الموت . كقوله تعالى : ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ [الأنفال : ٥٠] وقوله :

﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكة باسطوا أيديهم ، أخرجوا أنفسكم اليوم تحزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ [الأنعام : ٩٣] . ومعنى (باسطوا أيديهم) أي بالضرب . ومع هذا : (فلا منافاة بين هذا ، وبين ما تقدم ، فإن الملائكة في هذين اليومين ، يوم الممات ، ويوم المعاد ، تتجلى للمؤمنين ، وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين) – كما يقول ابن كثير ، وهناك من يرى أن القائل

﴿حجرا محجورا﴾

هم الكافرون أنفسهم ، فيكون معناها :

﴿ويقولون﴾

أي الكافرون .

﴿حجرا محجورا﴾

وفضلاً عن هذا فإن حكمنا بالتأويل على حوادث الآخرة يعد حكماً لا مبرر له أيضاً ، اللهم إلا إذا كنا على علم تام بحقيقة ، وكيفية ، وتفاصيل ، ودقائق ما سوف يحدث في الآخرة ، ومن ثم فقد تكون هناك شبهة في ضرورة صرف ألفاظ ، أو صفات « المجيء » أو « الإتيان » التي يوصف بها الله سبحانه .

وسبب ذلك ، أنه قد بات واضحاً لدينا أن أحكام الآخرة ، وحوادثها وتفاصيلها ، وكيفياتها ، وعلاقاتها سوف تكون مغايرة ، ومخالفة تماماً لما هو قائم بيننا الآن ، فعلى أي أساس يكون - إذاً - حكمنا على الصفات الإلهية ؟ !

- فهل يكون على أساس المعايير الدنيوية ، والمفاهيم ، والكيفيات التي تحدث فيها ؟ ولكن الأمر - كما اتضح لنا اتضحاً كاملاً - مخالف لذلك ، لأن الله سبحانه ، خارج الحدود ، والإمكانات البشرية ، الزمانية ، والمكانية ، فكيف إذن يحق لنا تفسير كيفياتها ، أو يجوز لنا أن نخوض فيها ، وهل إذا خضنا فيها يمكننا أن نصل إلى الحقيقة ؟ !

- أو يكون حكمنا على أساس معايير الحياة الآخرة ، وموازينها ، وفهم أو معرفة كيفياتها ، وحقائق ما يجري فيها ، ونحن لا نستطيع أن نتخيل أو نتصور أي شيء يتعلق بأي حادث من الحوادث التي

أي : عوداً معاذاً . ومعناه : أن الكافرين يتعوذون من الملائكة حين يرونهم ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة ، أو شدة يقولون

﴿ حجراً محجوراً ﴾

بيد أن هذا الوجه - كما يذكر ابن كثير بعيد عن السياق . وفي تقديره أنه لا منافاة بين هذه الآراء كلها ، فالملائكة تردده ، والكافرون يرددونه وكل منهم يعبر عن موقفه ، سواء أكان يوم القيامة ، أم يوم الممات ، وفي هذا اليوم أيضاً تنكشف لمن يعالج سكرات الموت أشياء ، كان محجوباً عن رؤيتها في الحياة الدنيا ، والله أعلم .

انظر ، تفسير ابن كثير . الطبعة السابقة ، ج / ٦ .

ستقع فيها ، لأن ما نحن فيه الآن ، وما نسميه بأسمائه من أرض
وسماء ، وما بينهما ، وما فيهما سوف تتغير طبيعته ، وتلاشي
قوانينه ، وأنماط تكوينه .

وبعبارة أخرى ، فهل ما نحتكم إليه اليوم من قوانين الطاقة ، والحركة ،
والثبات ، وما يرتبط بها من مجالات التطبيق في حياتنا ، وتسيير أمور
معاشنا ، وتدبير شؤون حاجتنا ، من القيم والمبادئ ، والمعايير وغيرها ، هل
هذا سيظل ثابتا على ما كان عليه دون تبدل ، ومن ثم فإنه يكون ممكنا أن
نحكم على أحداث الآخرة بما يحدث في حياتنا الدنيوية رفضا أو قبولا ، أو
تفسيرا وتأويلا .

لا مفر إذن من التسليم بكل ما أخبر به الله سبحانه عن نفسه ، وما
أخبر به الرسل إخبارا صحيحا موثقا عن الله سبحانه ، ولابد من التصديق
به ، والإيمان به ، دون أن نركب شططا في التفسير أو في التأويل الذي لا
يقدر أعظم العباقرة في الدنيا على مثله ، كما سبق أن أشرنا إليه ، وضررنا له
من أمثلة .

ولقد كان الشيخ « محمد عبده » مصيبا كبد الحقيقة حين قال في
معرض الحديث عن صفات الله ، وأسمائه : (فالذي يوجبه الإيمان ، هو
أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات ، أزلي أبدي ، حي ، عالم ، مريد ،
قادر ، متفرد في وجوب وجوده ، وفي كمال صفاته ، وفي صنع خلقه ، وأنه
متكلم ، سميع ، بصير ، وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع
بإطلاق أسمائها عليه ، أما كون الصفات زائدة على الذات ، وكون الكلام
صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية ، وكون السمع
والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشؤون التي
اختلف عليها النظار ، وتفرقت فيها المذاهب ، فمما لا يجوز الخوض فيه ،
إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه . والاستدلال على شيء منه بالألفاظ
الواردة ، ضعف في العقل ، وتغريب بالشرع ، لأن استعمال اللغة لا ينحصر

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة د. محمد عبد الله عفيفي

في الحقيقة . ولكن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعي الموجودات بكنهها الحقيقي . وإنما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمثلهم ، فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع . فما علينا إلا الوقوف عندما تبلغه عقولنا ^(١) . ثم يقول : (ولهذا لم يأت الكتاب العزيز ، وما سبقه من الكتب إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع ، لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع ، وصفاته الكمالية ، أما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها) ^(٢) .

وهكذا يتبين لنا أن الخلاف حول « صفات الحركة » وحول غيرها من الصفات ، والأسماء الإلهية ، خلاف قائم على غير أساس علمي ، أو عقلي ، فليس ثمة شواهد علمية تحتم علينا أن نسلك تجاه الأسماء أو الصفات الإلهية أو مسلك أولئك الذين لم يجروها على ظاهرها بدون تكييف أو تشبيه ، ودون نفي أو تعطيل ، وإنما اتجهوا تارة إلى النفي ، وتارة إلى التأويل بحجة التنزيه . - أقول ليس ثمة شواهد أو ضرورة تحوج إلى اتباع مثل هذا المنهج ، لأن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أسمائه .

وفضلاً عن هذا : فإن المنهج العقلي المعتدل ، البعيد عن الأهواء والمتخلص من الشبهات ، يحتم بضرورة الإيمان بهذه الصفات ، أو الأسماء دون لجوء إلى التكييف ، أو التشبيه ، أو التأويل . وقد مر بنا فيما تقدم أن علماء المسلمين المتبحرين في العلم ، قاطبة قد وقفوا هذا الموقف ، وتابعوا الصحابة والتابعين في الاتجاه إليه . يقول ابن تيمية :

(مذهب أهل الحديث ، وهم السلف من القرون الثلاثة ، ومن سلك سبيلهم ، من الخلف أن هذه الأحاديث تمر كما جاءت ، ويؤمن بها ، وتصدق ، وتصان عن تأويل يفضي إلى تعطيل ، وتكييف يفضي إلى تمثيل . وقد أطلق غير واحد ممن حكى إجماع السلف ، منهم « الخطابي » : مذهب السلف أنها تجري على ظاهرها مع نفي الكيفية ، والتشبيه عنها ،

(١) ، (٢) الإمام محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص ٥٦ - ٥٧ .

وذلك أن الكلام في « الصفات » فرع عن الكلام في « الذات » ، يحتذى حذوه ، ويتبع فيه مثاله ، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود ، لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات ، إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فنقول : إن له يداً ، وسمعاً ، ولا نقول : إن معنى اليد : « القدرة » ، ومعنى السمع : « العلم »^(١) .

وما يقال عن اليد ، والسمع ، يقال كذلك عن : النفس ، والوجه ، والعلم ، والكلام ، والخلق ، وغير ذلك مما وردت به النصوص الصحيحة ومن ذلك على سبيل المثال : في النفس :

— قال تعالى :

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾

[الأنعام : ٥٤] .

— قال تعالى :

﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوِئُ ۖ وَأَصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي ﴾

[طه : ٤١] ومن الأحاديث الصحيحة التي وردت في كتب السنة :

— جاء في صحيح البخاري (عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله : أنا مع عبدي حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم »^(٢) .

(١) ابن تيمية ، الرسالة المدنية ، في تحقيق المجاز والحقيقة ، في صفات الله تعالى ، مكة المكرمة ، المطبعة السلفية ، ط / ٢ سنة ١٣٥١ هـ ، ص ٤ ، وانظر ، مسألة صفات الله تعالى وعلوه على خلقه لابن تيمية ، ضمن مج ١ / من مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ، ط النار . ط / ١ سنة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م ، ص ١٩٤ - ٢١٢ .

(٢) أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة : (٢٢٣ - ٣١١ هـ) ، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل . مصر ، دار الكتب السلفية ، ط / ٢ سنة ١٤٠٣ هـ ، ص ٤ - ٥ ، والحديث رواه مسلم ، والترمذي ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث أنس . انظر تخریج الحديث في تعليق (١) ص ٥ / من المصدر نفسه .

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة د. محمد عبد الله عفيفي

- وفي صحيح مسلم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ ، قال للسيدة جويرية رضي الله عنها : (قد قلت بعدك أربع كلمات ، ولو وزنت بهن لوزنتهن ، سبحان الله العظيم وحمده ، عدد خلقه ، ومداد كلماته ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه)^(١) .

وقد علق ابن خزيمة على هذه النصوص وأمثالها ، فأشار إلى أن هذا الإثبات الإلهي الذي جاء في القرآن ، والبيان النبوي الذي جاء على لسان النبي ﷺ ، يقطع في يقين بإثبات هذه الصفات لله تعالى ، كما ذكر أن محاولة تأويلها لا تتفق لا مع السياق ، ولا مع العقل كما بين أن هؤلاء الذين يتأولون « النفس » كما جاءت هنا ، بأن إضافة النفس إليه سبحانه ، مثل إضافة الخلق إليه ، وذلك لأن « النفس » غير الله ، كما أن خلقه غيره ، بين أن هذا المنهج بعيد عن العقل ، لأن الله (قد أعلم في محكم تنزيله ، أنه كتب على نفسه الرحمة ، أفيتوهم مسلم - كما يقول ابن خزيمة - أن الله كتب على غيره الرحمة ؟ ! وحذر العباد نفسه ؟ ! أفیحل لمسلم أن يقول : أن الله حذر العباد غيره ، أو يتأول قوله لكليمه « موسى » ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِكَ﴾ طه / ٤١ .

فيقول : معناه : واصطنعتك لغيري من المخلوق ؟ ! أو يقول : أراد روح الله - وهو عيسى بن مريم - بقوله :

﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾

[المائدة : ١١٦] أراد ولا أعلم ما في غيرك ؟ ! هذا مالا يتوهمه مسلم^(٢) .

ومعنى هذا : أن « ابن خزيمة » ومعه علماء المسلمين قاطبة قد أجمعوا على أن الإيمان بالصفات الإلهية كما جاءت في النصوص الشرعية الموثقة ، هو

(١) المصدر السابق ، ص ٥ / ، وانظر ص ٦ / أيضا حيث يذكر ابن خزيمة عددا من الأحاديث التي يذكر فيها النفس صفة لله سبحانه .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦ .

اتجاه ، يتطابق مع الغاية من إخبارنا بهذه النصوص . ويتطابق مع ما تقضي به الأحكام العقلية الصحيحة ، البعيدة عن الأهواء ، وعن مسارب الشبهات .

وفي إقرار هذه الحقيقة ، يقول « ابن خزيمة » أيضا ، في معرض الحديث عن الآيات التي تثبت الوجه لله سبحانه ، مثل قوله :

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾

[البقرة : ١١٥] - يقول :

(فأتيت الله لنفسه وجها ، وصفه بالجلال والإكرام ، وحكم لوجهه بالبقاء ، ونفى الهلاك عنه ، فنحن وجميع علمائنا ، من أهل الحجاز ، وتهامة ، واليمن ، والعراق ، والشام ، ومصر مذهبا : أنا نثبت لله ، ما أثبتته الله لنفسه ، نقر بذلك بألسنتنا ، ونصدق بذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين ، وعز ربنا عن أن نشبهه بالمخلوقين ، وجل ربنا عن مقالة المعطلين ، وعز عن أن يكون عدما كما قاله المبطلون)^(١) .

ومعنى ما ذكره « ابن خزيمة » أن علماء الأمصار الإسلامية ، كانوا مجمعين على هذه القضية ، وأن الخلاف الذي دار حولها بين بعض الدوائر في البيئة الإسلامية ، ما بين مؤول ، وناف لها ، إنما حدث بسبب آت من خارج الفكر الإسلامي ، وبسبب التأثير بتيارات فكرية وفدت من ثقافات بعيدة عن الإسلام ، ومن ثم فإن هذه الثقافات لا يمكن أن تعد - لا من قريب ، ولا من بعيد - ممثلة للفكر الإسلامي ، أو معبرة عن الثقافة الإسلامية .

● - بين السلف والخلف :

وبعد فقد بات واضحا أن تلك المقولة التي رددت من قبل بل لا تزال ترد بين كثيرين في مجال الفكر الإسلامي وفي غيره ، وهي أن « موقف

(١) المصدر السابق ، ص ٧ - ٨ .

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة د. محمد عبد الله عفيفي

السلف أسلم ، وموقف الخلف أعلم « مقولة لم يرد بها إلا التشهير بالسلف ، وإلا فإن موقفهم كما تبين لنا كان قائما على أساس علمي رصين ، وعلى وعي تام ، وتفهم كامل لأبعاد القضية ، ولما يتفرع عنها ، أو يترتب عليها ، بحيث يتضح للدارس المتأني ، الباحث عن الحقيقة ، أن السلف قد توفرت لديهم منهجية علمية مدروسة ، وذلك إبان عرضهم لهذه القضية ، أو تحليلهم لها .

وقد كان من أبرز الذين تصدروا لتلك المقولة ، وحلّلوا أبعادها ، وكشفوا عن مراميها شيخ الإسلام « ابن تيمية » (ت : ٧٢٨هـ) . ونحن هنا لن نخوض في تفاصيل موقفه ، وإنما نكتفي بالإشارة الموجزة إلى نقطتين فقط في هذا الموقف .

الأولى : المنهج الذي طرحه في تناول هذه القضية ، ثم تطبيقه .

الثانية : الأسس أو القواعد التي بنى عليها رفضه لفكرة أن موقف الخلف أعلم ، وأن موقف السلف أسلم .

• منهج وتطبيقه :

والمنهج الذي نشير إليه ، مبثوث بكثرة في كتب « ابن تيمية »^(١) ، ولكننا سوف نستعير عن هذه الكثرة ، بما ذكره في رسالته الرائعة المسماة بـ « الرسالة المدنية في تحقيق المجاز والحقيقة في صفات الله تعالى » . وهذه الرسالة على وجازتها تحمل بين طياتها فيضا غزيرا من علم شيخ الإسلام . ومن ثم فإننا سنعوّل عليها ، على أنها نموذج منهجي يمثل جانبا من جوانب تناول أهل السنة لهذه القضية ، من الناحية النظرية ، والتطبيقية .

(١) على سبيل المثال : درء تعارض العقل والنقل - الصفدية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، الأجزاء الأولى من مجموع فتاوى الرياض - مجموعة الرسائل والمسائل ، نشر المنار للشيخ رشيد رضا .. الخ .

المنهج: (١)

وفي بيان هذا المنهج يذكر ابن تيمية ، أن الله سبحانه ، إذا وصف نفسه بصفة ، أو وصفه بها الرسول ﷺ ، فإن صرف تلك الصفة « عن ظاهرها اللائق بجلاله سبحانه ، وتعالى ، وحقيقتها المفهومة منها إلى باطن يخالف الظاهر ، ومجاز يخالف الحقيقة ، لا بد فيها من أربعة أشياء » (٢) :

الأول : أن يكون ذلك اللفظ مستعملا بمعناه المجازي في اللغة العربية ، وهي لغة القرآن التي نزل بها . ولغة السنة ، ولغة السلف .

الثاني : أ - أن يكون هناك دليل يوجب صرف اللفظ إلى المعنى المجازي ، إذا كان اللفظ يستعمل في الحقيقة تارة ، وفي المجاز تارة أخرى . والدليل في هذه الحالة القطعية ، لا بد أن يكون قطعي الدلالة على الصرف ، إما بطريقة عقلية ، أو بنص سمعي . أو كما عبّر عن هذا شيخ الإسلام بقوله : [ثم إن ادعى وجوب صرفه عن الحقيقة فلا بد من دليل قاطع عقلي أو سمعي يوجب الصرف] (٣) .

ب - أما إذا كان اللفظ واضح التأويل ، عند المؤول (وليس قطعيا) ، بمعنى : أن جانب التأويل فيه أرجح [فلا بد من دليل مرجح للحمل على المجاز] (٤) .

الثالث : أن هذا الدليل ، لا بد أن يكون خاليا من أي دليل آخر يعارضه ، [فإذا قام دليل قرآني ، أو إيماني يبين أن الحقيقة مرادة امتنع تركها] . ومن ناحية أخرى ، فإن « كان هذا الدليل نصا لم يلتفت إلى نقيضه ، وإن كان ظاهرا - أي راجحا - فلا بد من الترجيح » (٥) .

(١) سوف نحاول عرض ، وشرح ، وتلخيص رأي شيخ الإسلام .

(٢) الرسالة المدنية ، ص ٦/ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧/ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧/ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٧/ .

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة د. محمد عبد الله عفيفي

الرابع : أن الرسول ﷺ ، إذا تكلم بكلام أراد به غير ظاهره ، أو غير حقيقته ، « فلا بد أن يبين للأمة » ذلك ، ويوضحه [سواء عينه ، أو لم يعينه] وتبدو هذه الإبانة ضرورية ، وحتمية ، إذا كان الأمر يتعلق بقضايا العقيدة ، وبمسائل الدين ، وبحقائق العلم الإلهي أو كما قال : [لا سيما في الخطاب العلمي الذي أريد فيه فهم الاعتقاد ، والعلم ، دون عمل الجوارح]^(١) .

وسبب هذه الحتمية ، ما يلي :

أ - أن الله سبحانه « قد جعل القرآن نورا ، وهدى ، وبيانا للناس ، وشفاء لما في الصدور » من الوسوس ، والشكوك ، وحبائل الهوى .

ب - وأرسل سبحانه [الرسل لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولتحكم بينهم فيما اختلفوا فيه]^(٢) حتى تنقطع بهم الحجة ، وتتضح أمامهم السبل .

ج - والنبي ﷺ [بعث بأفصح اللغات ، وأبين الألسنة والعبارات]^(٣) .

د - والأمة التي تلقت عنه ، والتزموا نهجه [كانوا أعمق الناس علما ، وأنصحهم للأمة ، وأبينهم للسنّة]^(٤) .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يلزم أن يوضح النبي ﷺ ، وأصحابه ، ومن تبعهم كل ما يتعلق بقضايا الدين ، وبمسائل العقيدة وضوحا لا خفاء فيه ، ولا لبس معه . ومن ثم [فلا يجوز أن يتكلم هو - النبي ﷺ - وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره ، إلا وقد نصب دليلا يمنع من حمله على ظاهره]^(٥) .

- وهذا الدليل : قد يكون إما عقليا ظاهرا^(٦) ، وإما سمعيا ظاهرا ،

ولهذا ، فإنه لا يجوز أن يبلغ الناس ما أمر به أن يبلغه ، ثم يخفى عليهم ما

(١) - (٥) المصدر السابق ، ص ٧ .

(٦) وذلك مثل ما يعلم من أن المراد في قوله تعالى في سورة النمل عن ملكة سبأ

﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾

ما يؤتاها مثلها . نفسه ، ص ٧ .

في بعضه من الدلائل الغامضة ، والأسرار أو المعاني البعيدة عن متناول عقول عامتهم ، ثم يطلب منهم في الوقت نفسه أن يؤمنوا به ، وأن يعتقدوه ، ويطلب منهم كذلك ، أن يتدبروا ما فيه ، ويعقلوه ، ويتفكروا فيه – يذكر ابن تيمية ، أنه لا يجوز ذلك ، لأنه ضد مهمة بعث الرسل ، ومناف لأهدافها ، ومناقض للغاية من الرسالة نفسها لأن الرسالة ، للأفهام ، وللهداية ، وللإرشاد ، وللبيان كما ذكرنا .

وكذلك ، فإن الناس ليسوا جميعا على درجة سواء من العلم ، أو الفهم ، أو الاستنباط ، واستخراج الأدلة ، والبراهين ، ذلك أن منهم – كما يقول – [الذكي ، والبليد ، والفقيه ، وغير الفقيه] . وإذا كان ثمة أدلة غامضة ، أو خفية تدل على أن المراد غير ظاهر تلك البلاغات ، وتلك الأدلة غير متيسرة للعامة ومن في حكمهم من المتعلمين ، – إذا كان الأمر كذلك [كان تدليسا وتلبيسا ، وكان نقيض البيان وضد الهدى . وهو بالألغاز ، والأحاجي أشبه ، منه بالهدى ، والبيان]^(١) .

● .. هذه هي خطوات المنهج لدى ابن تيمية . والذي جعل منه أساسا للنظر في صفات الخالق جل وعلا ، وللتأمل في أسمائه . وهو المنهج الذي عالج من خلاله قضيته للتأويل في هذا المجال . والآن لننظر كيف طبق شيخ الإسلام هذا المنهج على صفة من الصفات التي جعل منها نموذجا يحتذى .

● .. التطبيق :

أما في مجال تطبيق تلك القواعد التي ذكرناها ، فيشير إليه ابن تيمية قائلا : [ونحن نتكلم على صفة من الصفات ، ونجعل الكلام فيها أنموذجا يحتذى عليه]^(٢) .

أما تلك الصفة التي اختارها نموذجا لتطبيق المنهج الذي أشار إليه ، والتي تعد مدخلا لفهم قضايا الصفات برمتها ، فهي صفة « اليد » .

(١) المصدر السابق ، ص ٧ – ٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧/ .

وقد جاءت تلك الصفة في القرآن الكريم ، وفي السنة الصحيحة كثيرا . وقد قبلها أهل السنة - كما ذكرنا - وأمرّوها كما هي ، دون أن ينفوها ، ودون أن يفهموها في إطار الفهم البشري لمدلول كلمة اليد ، التي يتصف بها البشر ، أو غيرهم من المخلوقات ، وإنما فهموا أن لله سبحانه يدا [تناسب ذاته ، تستحق من صفات الكمال ، ما تستحق الذات]^(١) .

ولعل من أبرز الأسباب التي (تؤخذ مما) يشير إليه شيخ الإسلام ، أن المدخل لهذا الفهم المتعلق بقضية الصفات ، هو معايير اللغة العربية ، وطرائقها في التعبير ، ووسائلها في الإبانة والتصوير ، وإذا عرفنا ، أن القرآن أنزله الله بهذا اللسان العربي ، وأنه سبحانه قد وصفه بأنه « مبين » ، فإن هذا الإعلام يضع بين أيدينا فكرة منهجية على جانب كبير من الأهمية ، هي : أن تكون طرائق فهم القرآن ، ومناهج تدبره ، وسبل الغوص وراء مراميه ، ومعانيه ، سائرة حسب قوانين ذلك اللسان المبين ، سواء أكان ذلك في الحقيقة أم في المجاز ، في الدلالة أم الإشارة ، وعلى هذا النحو يكون المضي قدما في طرائق فهم « الصفات الإلهية » ، حيث يجب الالتزام التام ، بأسس الدلالة في اللغة العربية ، وبضوابط أساليب الإفهام فيها . وهنا ينبغي أن نشير إلى ضرورة الالتفات إلى أن محاولة تناول هذه القضية في ضوء دلالة أية لغة أخرى غير العربية ، سوف يكون منهجا بعيدا عن الالتزام العلمي ، ومخالفا لقواعد المنهجية العلمية في تناول هذه القضية .

وعلى هذا : فإن صفة « اليد » في مثل قوله تعالى

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

[الفتح : ١٠]^(٢) جاءت مفردة ، وجاءت مثناة في مثل قوله تعالى :

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

(١) المصدر السابق ، ص / ١٠ .

(٢) وكذلك جاءت في مثل : « آل عمران : ٧٣ ، الحديد : ٢٩ » .

[المائدة : ٦٤] وقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَلَا لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ السَّجْدَ لِلَّهِ خَلَقَ بِيَدَيْهِ﴾

[ص : ٧٥] ، وجاءت جمعا في قوله تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾

[يس : ٧١] .

● .. وعند النظر في الدلالة اللغوية والشرعية لهذه الصفة ، حسب قوانين اللغة العربية نجد أنها لا تنصرف إلا إلى الحقيقة في هذا المجال . وهذا يعني أن الله سبحانه إنما أراد أن يعلمنا بأن له يداً حقيقة ، ولكنها يد إلهية خاصة به ، لا تشبيه فيها ، ولا تكييف . وسبب ذلك : أن « اليد » في اللغة لم تستعمل في معناها المجازي عندما تكون مثناة ، ومن ثم فلا يجوز أن يكون معناها : القدرة ، أو النعمة أو العطية مثلاً . وذلك حسب الاستعمال اللغوي العربي المبين . [لأن القدرة واحدة ، ولا يجوز أن يعبر بالاثنتين عن الواحد]^(١) .

● .. وكذلك فإن [نعم الله لا تحصى ، ولا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية]^(٢) .

● .. وكذلك لا يجوز أن يكون معناها : [لما خلقت أنا] لأن العرب إذا أرادوا مثل هذا المعنى ، يضيفون الفعل إلى اليد كقوله تعالى :

﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾^(٣)

وقوله تعالى :

﴿بِمَا قَدَّمْتِ يَدَاكَ﴾

[الحج : ١] .

● .. أما عندما يضاف الفعل إلى الفعل ، ويعدى الفعل إلى اليد بحرف « الباء » [فإنه نص في أنه فعل الفعل بيده . ولهذا لا يجوز لمن تكلم أو

(١) المصدر السابق ، ص ٧ - ٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩ - ١٠ .

(٣) سورة يس ، آية ٧١ .

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة د. محمد عبد الله عفيفي

مشى أن يقول : فعلت هذا بيدي ^(١) فإذا قال العرب : [فعلت هذا بيدي ، أو فلان فعل بيديه] ^(٢) فإنه يعني : أنه قد فعله بيديه حقيقة .

● .. وكذلك فإنهم إذا قالوا : فعل بيديه ، فإن هذا يعني من ناحية أخرى : أن الذي قام بهذا الفعل له يد حقيقة ، [ولا يجوز أن يكون لا يد له ، أو يكون له يد ، والفعل وقع بغيرها] ^(٣) .

هذا فيما يتعلق بالخطوة المنهجية الأولى التي أشرنا إليها .

● اعتراض وجوابه :

فإن قيل : إن اللغة العربية قد جاء فيها التعبير بالإثنين في مقام الحديث عن الواحد ، كقوله تعالى :

﴿أَلْقِيَافِي جَهَنَّمَ﴾

[ق : ٢٤] وهذا خطاب للواحد جاء بلفظ الإثنين . وعلى هذا ، فيكون قوله تعالى :

﴿لَمَّا خَلَفْتُ بِيَدَيَّ﴾ ص ٧٥ .

ليس نصا في إثبات اليمين له ، ومن ثم فإنه يمكن تأويله .

ويرد ابن تيمية هذا الاعتراض قائلا : [هذا ممنوع . بل قوله :

« ألقيا » قد قيل : تشنية الفاعل كتشنية الفعل ، والمعنى : ألق ألق . وقيل : أنه خطاب للسائق والشهيد] ^(٤) .

وأما من قال : إنه خطاب للواحد ، فإنه يكون على ما جرت به العادة من أن الشخص يكون معه اثنان ، أحدهما عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فيقول خليلي : ويوقع خطابه على هذا الأساس ، حتى وإن لم يكونا

(١) (٢) (٣) المصدر السابق

(٤) في قوله تعالى :

﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾

ق : ٢١ .

موجودين] فقلوه : « ألقيا » عند هذا القائل ، إنما هو خطاب مع اثنين يقدر وجودهما [(١) .

● الجانب الثاني ، أو الخطوة المنهجية الثانية : وهي تقوم على افتراض أنه يجوز أن يكون لليد معنيان ، أحدهما على الحقيقة : وهو اليد حقيقة ، والثاني على الكناية : وهو القدرة ، والنعمة . لكن إذا كان الأمر كذلك فليس هناك أي دافع لصرف اللفظ من الحقيقة إلى الكناية ، اللهم إلا إذا كان تنزيه الخالق سبحانه عن أن تكون له يد تشبه جوارح المخلوق وأهل السنة يصرون على ضرورة تأكيد هذه الفكرة ، ولا يقولون أبدا بما يناقضها ، فليس لله سبحانه يد من جنس أيدي المخلوقين ، لكن هذه الحقيقة المقررة ، لا تمنع ، لا عقلا ، ولا شرعا ، أن يكون لله سبحانه [يد تناسب ذاته ، تستحق من صفات الكمال ما تستحق الذات] (٢) وأمر اليد هنا مثل أمر الذات . فكما أن ذاته لا تشبه ذوات المخلوقين ، فإن هذا لا يتأتى إلا بأن تكون صفاته سبحانه مغايرة تمام المغايرة لصفاتهم ، ومن ثم فإن يده ليست مثل أيديهم .

وبذلك يكون الأساس الذي بنى عليه منكرو الصفات ، وهو عدم مشابهته للمخلوقين ، متحققا ، وقائما مع إثبات الصفات ، ونفي مشابهتها لصفات المخلوقين نفيا قطعيا ، وحاسما .

● .. أما الخطوة المنهجية الثالثة : فإنه عند النظر في صفة « اليد » له سبحانه في ضوءها نلاحظ ما يلي :

أ - أنه لم يرد [في كتاب الله ، أو في سنة رسوله ، أو عن أحد من أئمة المسلمين ، أنهم قالوا : إن المراد باليد ، خلاف ظاهره] (٣) أو قالوا : الظاهر غير مراد .

(١) المصدر السابق ، ص ١٠/ وانظر ، محمد بن علي الشوكاني (ت : ١٢٥٠هـ) ، فتح القدير ، بيروت . دار الفكر ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م . مج ٥/ ، ص ٧٦ - ٧٧ حيث يذكر هذه الآراء عن عديد من علماء اللغة ، كالخليل ، والأخفش ، والفراء ، والمازني ، والمبرد .

(٢) الرسالة المدنية ، ص ١٠/ .

(٣) نفسه ، ص ١١/ .

- ب - وليس في كتاب الله ، ما يدل على انتفاء صفة اليد عنه سبحانه ، سواء أكانت هذه الدلالة ظاهرة ، أم خفية .
- ج - أن ما ورد في القرآن من آيات تنفي مشابهة الخالق للمخلوقين ، مثل قوله تعالى :

﴿ هَلْ نَعْمَلُهُ سَمِيًّا ﴾

[مريم : ٦٥]

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

- منحصر في نفي التمثيل ، والتشبيه عنه سبحانه . [أما انتفاء يد تليق بجلاله ، فليس في الكلام ما يدل عليه بوجه من الوجوه]^(١) .
- د - وليس في العقل ما يدل دلالة ظاهرة ، أو خفية على أن الباري سبحانه لا يتصف بصفة اليد أبدا . وهذا يعني : أن المنطق العقلي لا يمنع - لا من قريب ، ولا من بعيد - أن يوصف الله سبحانه بتلك الصفة .

هـ - ويضاف إلى ما سبق : الأمور ، أو الظواهر التالية :

- ١ - أن ذكر « اليد » قد تكرر كثيرا في القرآن ، وفي السنة ، كما ذكرنا .
- ٢ - ولا يعقل أن يحدث هذا ، ولا يقوم النبي ﷺ ، هو ومن تبعه من الصحابة ، وأولي الأمر ببيان حقيقة المراد بتلك الصفة ، إذا كان ظاهرها غير مراد ، أو كان المراد بها معنى : القدرة ، أو النعمة ، أو غير ذلك .

- ٣ - وغير معقول أن يستمر هذا الإبهام من قبل أئمة المسلمين ، أو لا يستطيعون أن يهتدوا إلى بيان معناها المراد [حتى ينشأ « جهم بن صفوان » - كما يقول ابن تيمية - بعد انقراض عصر الصحابة ، فيبين للناس ما نزل إليهم على نبيهم ، ويتبعه عليه « بشر بن غياث المريسي » ومن سلك سبيلهم من كل مغموص عليه بالنفاق]^(٢) .

(١) المصدر السابق ، ص ١١/ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١/ .

٤ - وكيف يحدث هذا ، ونحن نعلم علم اليقين ، أن النبي ﷺ ، قد بين لنا كل شيء ، حتى إنه قال : (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك) ؟ !^(١)

٥ - وكيف يحدث هذا ، وتكون النصوص بهذه الكثرة ، ويسكت عن بيانها جميع علماء الأمة ، مع أن اعتقاد ظاهرها على رأي المؤولين ، والنافين - يؤدي إلى الضلال ؟ !!

٦ - وكيف يجوز للسلف أن يقولوا : « أمرّوها » كما جاءت ، مع أن معناها المجازي هو المراد ، وهو شيء يفهمه الأعراب ، حتى يكون أبناء فارس ، والروم أعلم بلغة العرب من أبناء المهاجرين ، والأنصار ؟ !

● .. الخطوة المنهجية الرابعة : إن هناك أدلة قاطعة تتفق مع المنهج العقلي ، تدل على أن الله يدين حقيقة ، وذلك من خلال ما يلي :

١ - تفضيله لآدم ، حيث خلقه بيديه ، وجعل الملائكة تسجد له ، فلو كان آدم خلق بقدرة الله ، أو بنعمته ، كما يقول المؤولون ، لكان خلق آدم لا يختلف عن خلق إبليس ، بل جميع المخلوقات الأخرى ، فكان هذا الموقف المرتبط بآدم ذا دلالة أكيدة ، وخاصة على أن آدم قد خلقه الله بيديه .

٢ - إن أولئك الذين يقولون : إن إضافة خلق آدم إلى الله ، من باب التكريم والتشريف ، كما في قولنا : « ناقة الله ، وبیت الله » ، إنما يؤيدون - من حيث لا يشعرون - الفكرة القائلة ، بأن الله يدين على الحقيقة ، حيث كان التكريم الخاص لآدم هو أن الله قد خلقه بيديه ، وهذا تشريف له ، وتكريم . وعلى هذا تكون [إضافة خلق آدم إليه]

(١) المصدر السابق ، ص / ١١ ، والحديث رواه ابن ماجه في المقدمة . وجاء في الموطأ في كتاب الحدود ، الحديث (رقم ١٠) ما يدل على هذا المعنى عن عمر بن الخطاب .

دالة دلالة أكيدة على أنه [خلقه بيده ، وأنه قد فعله بيده ، وخلق هؤلاء بقوله « كن فيكون »]^(١) .

٣ - ويضاف إلى ذلك ، أن ثمة فرقا بين قولهم : « بيده الملك » وقولهم « عملته يداك » ، وهو أن التعبير الأول ، يقع فيه المجاز كثيرا ، لكن مع هذا فالتعبيران كلاهما يدلان على معنيين متلازمين ، الأول : [إثبات اليد . والثاني : إضافة الملك ، والعمل إليهما]^(٢) .

٤ - ومما يؤيد ما ذكرناه : أن العرب لا يطلقون « عملته يداك » إلا لجنس له يد حقيقة ، ومن ثم فإنهم [لا يقولون : يد الهواء ، ولا يد الماء]^(٣) ، بل لو سلمنا جدلا [أن قوله

﴿ يَدِ الْمَلِكِ ﴾

قد علم منه أن المراد : « بقدرته »]^(٤) فإن هذا لا يقبل [إلا لمن له يد حقيقة]^(٥) .

٥ - أما قوله تعالى :

﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَا ﴾

فقد جاءت بصيغة الجمع ، لأن من أساليب اللغة العربية ، أن يوضع اسم الجمع [موضع التثنية إذا أمن اللبس . كقوله تعالى :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

[المائدة : ٣٨] وقوله تعالى :

﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾

[التحريم : ٤]^(٦) .

وهكذا رأينا أن الالتزام بالمنهجية العلمية في تناول هذه القضية من قبل علماء السلف ، كان هو الدافع الرئيسي الذي جعلهم يرفضون قطعيا أن

(١) المصدر السابق ، ص ١٢/ .

(٢) نفسه ، ص ١٢/ .

(٣) ، (٤) ، (٥) المصدر نفسه ، ص ١٢/ .

(٦) نفسه ، ص ١٢/ .

ينكروا بعض صفات الخالق ، سبحانه ، بحجة التنزيه ، أو بحجة فكرة أو حقيقة « التوحيد » وإنما الذي رأيناه من خلال هذا الموقف ، أن منطلقهم الأساسي كان من تأكيد فكرة التوحيد ، التي تعني في المقام الأول ، نفي التشبيه ، والند ، والنظير ، والسمي عن الخالق ، في الذات ، وفي الصفات معا .

وأما قضية التفرقة بين الذات ، والصفات ، فهي فكرة فلسفية ، تمتد في جذورها إلى منابت الفلسفة الوثنية ، كما أنها في الواقع فكرة تجريدية ، لا وجود لها في الواقع أبدا . بل هي أشبه بذلك السراب الذي يحسبه الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . وهكذا لا نعثر في الواقع الفكري ، والوجودي على تلك الثنائية ، التي تفصل فيها الصفة عن الموصوف ، والتي تعتبر فيها الصفة وجودا قائما بذاته .

● .. ومن هذا المنطلق رأينا شيخ الإسلام يلفت نظرنا إلى جملة من الحقائق ، والتي جعلها مقدمات لإصدار حكمه على منهج السلف ، وعلى موقفهم في رفض التأويل في قضية الصفات الإلهية .

● الأسس أو القواعد التي بنى عليها إقراره بأن السلف أعلم :

والذي ذكره ابن تيمية في هذه القضية كثير جدا ، لا يحتمله الموقف الآن ، ولكن تتمتها لفكرة المنهجية لدى السلف ، فإننا سوف نلمح إلى بعض الأفكار أو القواعد العامة ، والتي تعد في الوقت نفسه ، من بين الأسس المنهجية الضرورية لفهم موقف السلف من الصفات ، وللوقوف على دوافعه ، ومبرراته .

وفي هذا الصدد فإن شيخ الإسلام يشير إلى ما يلي^(١) :

● .. بعث الله سبحانه ، النبي ﷺ ، ليهدي الناس قاطبة إلى الحق في العقائد ، وفي كل ما يتصل بها ، أو يتفرع عنها ، من القيم ، والمبادئ ،

(١) هذه النقاط المشار إليها ، هي محاولة منا لتحليل موقف شيخ الإسلام ، واستخلاص القواعد العامة مما ذكره .

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة د. محمد عبد الله عفيفي

وفي كل ما يتعلق بتنظيم الحياة الإنسانية ، وتخليصها من كل مسببات الفساد ، والإفساد ، وظواهر الانحراف أيًا كان حجمها ، أو امتدادها في مجالات الحياة .

● .. وقد وصفت هذه الدعوة بصفات لها دلالتها العميقة جدا ، كما تدل على مبلغ إسهامها في تغيير الواقع ، وعلى أهدافها في كل مجالات الحياة ، وذلك مثل : الهدى – البصيرة – النور – السراج المنير – البينة – الصراط المستقيم – المحجة البيضاء ... الخ .

● .. وقد حملت هذه الرسالة إلى العالمين كتابا من عند الله ، لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ، ولا من خلفه ، ليكون مرجعا للحكم عند الاختلاف في أي أمر من أمور الدين ، وفي أية قاعدة من قواعد العقيدة ، أو حقيقة من حقائقها .

● .. ومن المسلم به ، أن تحقيق تلك الغاية التي أشرنا إليها ، ليس له إلا طريق أوحده ، ووحيد ، وهو الإيمان بالله تعالى ، وبما يليق به من الأسماء والصفات التي وردت في القرآن ، وفي السنة . ومن ثم فإن هذه القضية تعد بيت القصيد في أي منطلق من منطلقات العقيدة الدينية الصحيحة ، والمصححة .

● .. وعلى هذا ، فإن الضرورات العقلية ، والدينية تقضي بما يلي :

أ – إذا كان هدف الرسالة هو إفهام الناس بأمور العقيدة الصحيحة كما ذكرنا ، فمن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ ، قد ترك أية قضية من قضايا العقيدة ، سواء أكانت متعلقة بها ، أم منبثقة منها ، دون أن يكون قد أوضحها غاية الوضوح ، وبَيَّنَّها غاية البيان .

ب – وإذا كانت قضية الإيمان بالله تعالى ، هي أم القضايا ، ورأس الأمر ، فإنه يصبح من أشد الضرورات تأكيدا ، أن يكون النبي ﷺ قد وفَّاهَا حقها ، ولم يترك فيها لا شاردة ، ولا واردة إلا وأعطاهَا حقها من البيان ، والتوضيح والشرح . وهذا يتطلب : أن يكون الرسول

ﷺ ، قد سد باب الشبهات في هذا المجال سدا محكما ، وأغلق كل

المسارب التي قد تؤدي إلى البلبلة ، أو إثارة الشكوك .

ج - ومن الأمور الواضحات ، بل من الحقائق المعلنات : أن النبي ﷺ ، قد علّم أمته كل شيء ، دون أن يترك صغيرا أو كبيرا ، مهماً ، أو غير مهم . وهذا يعني : أنه ﷺ قد تناول هذه القضية الكبرى في عقيدة الإسلام ، تناولا مستفيضا ، شافيا ، وكافيا . ولذلك يقول « أبو ذر » رضي الله عنه : [لقد توفي رسول الله ﷺ ، وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما] . وقال « عمر » رضي الله عنه : [قام فينا رسول الله ﷺ ، مقاما ، فذكر بدء الخلق ، حتى دخل أهل الجنة منازلهم ، وأهل النار منازلهم . حفظ ذلك من حفظه ، ونسيه من نسيه] « رواه البخاري » .^(١)

د - ومعنى هذا : أن أولئك الذين سمعوا من الرسول ، وتلقوا عنه ذلك ، ووعوه ، وفهموه ، وتدارسوه ، يعدون - بكل المعايير العقلية ، والحسية - أعلم الناس ، وأفقه الناس ، وأعمق الناس في كل هاتيك القضايا .

يقول ابن تيمية :

[ثم من المحال أيضا : أن تكون القرون الفاضلة - القرن الذي بعث فيه رسول الله ﷺ ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم - كانوا غير عالمين ، وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين]^(٢) وهو يقصد باب الصفات .

● .. ويعلل هذه الظاهرة : بأن هذه القضية لا يسكت عنها من كان في قلبه (أدنى حياة ، وطلب للعلم) وذلك حيث يكون [البحث عن هذا

(١) في كتاب : بدء الخلق ، ورواه « أبو داود » في الفتن ، والترمذي كذلك ، وفي مسند الإمام أحمد ، ٥ : ٤١ عن حذيفة .

(٢) فتاوى الرياض : ج ٥ ، ص ٧ / ٨ .

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة د. محمد عبد الله عفيفي

الباب ، والسؤال عنه ، ومعرفة الحق فيه ، أكبر مقاصده ، وأعظم مطالبه ، أعني : بيان ما ينبغي اعتقاده ، لا معرفة كيفية الرب ، وصفاته [(١)] .

.. **ويعللها أيضا :** بأن هذه القضية ، من القضايا التي تتعلق بالفطرة البشرية ، ومن القضايا التي تشغل الإنسان دوما ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن الأمور المستبعدة ، أن يكون الصحابة - مع غزارة علمهم ، وعمق فقههم قد أغفلوا معرفة ذلك ، أو الوقوف فيه على الحق المبين . يقول ابن تيمية : [فكيف يتصور مع قيام هذا المقتضى - الذي هو من أقوى المقتضيات - أن يتخلف عنه مقتضاه في أولئك السادة في مجموع عصورهم ؟ !! هذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق ، وأشدهم إعراضا عن الله ، وأعظمهم إكبابا على طلب الدنيا ، والغفلة عن ذكر الله تعالى ، فكيف يقع في أولئك ؟ !!] (٢) .

هـ - وما يؤيد هذه الفكرة ، بل هذه الحقيقة ، أن المنهج القرآني كان محيطا بكل المقالات ، أو الأفكار الضالة ، ومجادلا لها ، وكاشفا لمصادر الضلال فيها ، ومبين دوافع الانحراف لديها ، وبما أن الصحابة قد فهموا القرآن ، وتدبروا آياته وعاشوا معه ، وعاشوه ، آية ، آية ، بل لم يكونوا يدعون عشر الآيات تنزل على رسول الهدى ﷺ ، حتى يتقنوها علما ، وعملا حتى حفظوا القرآن ، وأتقنوا العلم ، والعمل جميعا - أقول : بما أن الأمر كذلك ، فإن هؤلاء الصحابة لابد أن يكونوا في كل هذا أفقه الفقهاء ، وأعلم العلماء ، فهم مصادر علم الدين ، وفقهه دون منازع .

[إذا تدبر المؤمن العليم ، سائر مقالات الفلاسفة ، وغيرهم من الأمم التي فيها ضلال ، وكفر ، وجد القرآن ، والسنة كاشفان لأحوالهم ، مبينان لحقهم ، مميزان بين حق ذلك ، وباطله . والصحابة كانوا أعلم الخلق

(١) المصدر السابق ، ، ص ٨ .

(٢) نفسه ، ص ٨ .

بذلك ، كما كانوا أقوم الخلق بجهاد الكفار ، والمنافقين كما قال فيهم « عبد الله بن مسعود » : « من كان منكم مستنًا فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ، كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم »^(١) .

ويعلق ابن تيمية على كلام « ابن مسعود » بأنه ، يخبر عما عرف به الصحابة من كمال بر القلوب ، [مع كمال عمق العلم . وهذا قليل في المتأخرين]^(٢) .

و - وبما أن السلف قد نهجوا نهج الصحابة ، واتبعوا طريقتهم ، وأفادوا من غزارة علمهم ، وارتنوا من فيض فقههم ، فإنهم بذلك لابد أن يكونوا في موقفهم من الصفات ، أعلم ، وأحكم ، وأسلم .

ز - وعلى هذا فإن فكرة تفضيل موقف الخلف باتجاههم إلى التأويل تارة ، أو إلى النفي ، على موقف السلف بكفهم عن الخوض في ذلك ، تعد فكرة غير سديدة من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فإنها تؤدي في الواقع ، إلى الحكم على أولئك الصحابة ، ومن اتبع طريقتهم ، بأنهم كانوا عاجزين في فهمهم ، بل غير قادرين على استيعاب النص القرآني استيعابا تاما . ومن ثم فقد آثروا السلامة ، ولم يؤولوا ، بل فوضوا معرفة حقائق الصفات إلى مراد الله .

أما الخلف : فقد كسروا هذا الحاجز ، وكانوا أعمق علما ، وأكثر قدرة على الفهم ، والاستيعاب ، فكشفوا عن مراد الخالق ، واتجهوا إلى التأويل . ولا ريب أن هذا التصور الذي تطرحه تلك المقولة ، فيه مجانبية للحقائق الموضوعية ، وهو بعيد عن المنهجية العلمية ، وهو لا يمثل الواقع لا

(١) فتاوى الرياض : مج ٤ / ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

الأسس المنهجية لموقف أهل السنة د. محمد عبد الله عفيفي

من قريب ، ولا من بعيد ، بل مقتضاه ، كما يقول ابن تيمية بحق :
[استجهال السابقين الأولين ، واستبلاهم ، واعتقاد أنهم كانوا قوما
أُميين ، بمنزلة الصالحين من العامة ، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ، ولم
يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي ، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في
هذا كله]^(١) .

فإذا أضفنا إلى ذلك ، أنهم يقصدون من الخلف ، أولئك المتكلمين
الذين كثر في قضايا الدين جدلهم ، واضطرابهم ، أدركنا مدى خطورة تلك
المقولة التي لا تزال تردد على ألسنة طائفة من الدارسين هنا ، وهناك .
وأدركنا أيضا مدى مخالفتها للحق ، وللحقيقة كما ذكرنا .

خاتمة :

وبعد ، فقد تبين لنا أن السلف في موقفهم من قضية الصفات ، حين
نفوا فيها التأويل ، وحين أثبتوها على حقيقتها للخالق سبحانه ، دون تشبيه ،
ولا تكييف ، كانوا يتبعون أسسا منهجية ، ويسيروا وفق قواعد علمية ، كما
أنهم كانوا يصدرون في موقفهم هذا عن علم جم غزير ، وفقه فياض
مستنير ، بل لم يكونوا مترددين ، ولم يكونوا من الأُميين ، أو من ضعاف
العقول ، أو محدودي العقل والثقافة ، والتفكير .

وما أحسن ما قاله صاحب أبي حنيفة ، « محمد بن الحسن » :
[اتفق الفقهاء كلهم من الشرق والغرب : على الإيمان بالقرآن ، والأحاديث
التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير
تفسير ، ولا وصف ، ولا تشبيه . فمن فسر شيئا من ذلك فقد خرج مما
كان عليه النبي ﷺ ، وفارق الجماعة ، فإنهم لم يصفوا ، ولم يفسروا ،
ولكن آمنوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا . فمن قال بقول « جهم » فقد
فارق الجماعة]^(٢) .

(١) فتاوى الرياض : مج ٥ / ص ١٠ .

(٢) ابن تيمية ، فتاوى الرياض . مج ٤ / ص ٤ - ٥ وانظر ص ٦ - ٨ .

● .. وقول الشافعي : [حرام على العقول أن تمثل الله تعالى ، وعلى الأوهام أن تحدّه ، وعلى الظنون أن تقطع ، وعلى النفوس أن تفكر ، وعلى الضمائر أن تعمق ، وعلى الخواطر أن تحيط ، وعلى العقول أن تعقل إلا ما وصف به نفسه ، أو على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام]^(١) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم وبارك على النبي الأمين نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

مراجع البحث ومصادره

التفسير : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، مصر . دار الشعب ، محمد
ابن علي الشوكاني ، فتح القدير . بيروت ، دار الفكر
١٤٠٣ / ١٩٨٣ م .

المراجع :

— د . إبراهيم بيومي مذكور ، الفلسفة الإسلامية ، والنهضة
الأوروبية ، بحث ضمن كتاب ، أثر العرب والإسلام في
النهضة الأوروبية . مصر ، الهيئة المصرية العامة للنشر ،
١٩٧٠ م .

— البغدادي ، الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد ، بيروت . دار المعرفة ، بدون تاريخ .

— ابن تيمية ، الاستقامة . ج ١ تحقيق د. محمد رشاد
سالم . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . ط ١ ،
١٤٠٣ / ١٩٨٣ م .

— الرسالة المدنية في تحقيق المجاز والحقيقة في صفات الله
تعالى . مكة المكرمة . المطبعة السلفية . ط ٢ ، ١٣٥١ هـ .

— فتاوى الرياض ، مج : ٣ ، ٤ ، ٥ .
مجموعة الرسائل والمسائل . مصر . مطبعة المنار . ط ١ ،
١٣٤٤ هـ .

— ابن رشد ، الكشف عن مناهج الأدلة (ضمن مجموعة ،
فلسفة ابن رشد) . بيروت دار ، الآفاق الجديدة .
ط ١ ، ١٤٠٢ / ١٩٨٢ م .

- د. عبد المجيد منصور ، علم اللغة النفسي ، الرياض ،
جامعة الملك سعود ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ابن قيم الجوزية ، إعلام الموقعين ، ج ٢ ، مصر . مكتبة
الحاج عبد السلام ابن شقرون ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة ، كتاب التوحيد ،
وإثبات صفات الرب عز وجل . مصر . دار الكتب
السلفية . ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ .
- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، سنن الدارمي .
دار إحياء السنة النبوية . بدون تاريخ .
- محمد عبده ، رسالة التوحيد . مصر . دار المعارف .
ط ٥ ، ١٩٧٧ م .
- محمد مرتضى اليماني ، (ابن الوزير) إثبات الحق على
الخلق . بيروت . دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٣١٨ هـ .
- د. محمود قاسم ، ابن رشد .. القاهرة . مكتبة الأنجلو
المصرية ، بدون تاريخ .

★ ★ ★